الفصل الأول

المصريون

علم حَدَث :

لقد غيّر ما اكتسبناه من إدراك لماضى مصر خلال القرن الماضى ، من مفهومنا كله عن التاريخ ، وقد نتساءل أيضاً إلى أى مدى قد غيّر مفهومنا عن التفكير الأخلاق والفلسنى ، لأنه بغض النظر عن عراقة مصر فى القدم ، فإن حضارتها تختلف عن كافة الحضارات الأخرى المعروفة ، فى اعتبارين على الأقل : طول أمدها واستمرارها .

ولما كانت قصة الفلسفة الشرقية تبدأ بمثل هذه التأملات التى احتفظت بها الآثار المصرية ، فنحن الآن فى وضع أفضل للبحث عن مدى القدم الذى يمكن أن نتعقب فيه جهود الإنسان فيما له صلة بالتفكير المنظم ، لأننا تواقون لمعرفة ما يدل على أن هناك « حضارة » – بمعنى منهج منظم لمجتمع تسوده وجهة نظر فى الحياة ملازمة له – سابقة لوجود الآثار المدونة ، وعلى أى امتداد زمنى يمكن إدراكها .

وللإجابة عن هذه الأسئلة ، فسيكون من المفيد أن نشير لبرهة إلى كل من إعادة اكتشاف مصر القديمة ، أو بمعنى آخر تاريخ العلم الحدث علم المصريات Egyptology وإلى علل الحقيقة التى تلقى الآن تأييداً كبيراً من المؤرخين ، وهى أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفه .

وفيما عدا المعلومات البالغة الطرافة والبالغة الدقة التى خلّفها هيرودوت Herodotus ، المؤرخ الإغريقى (٤٨٤ – ٤٢٥ ق . م) وما خلّفه أيضاً كتاب غيره معينون من الإغريق والرومان ، لم تصلنا إلا معلومات قليلة جدًّا معاصرة لتلك الفترة عن الحياة المصرية وعن الثقافة المصرية . ومن الإنصاف القول بأننا نستطيع أن نستخلص الكثير من المعلومات القيّمة جدًّا من كل من عهدىْ الكتاب المقدس ، وسيكون فى استطاعتنا فيما بعد ملاحظة إلى أى مدى كان أساس الحضارة العبرية حضارة مصر . وعلى غير شاكلة اليونان وروما لم يكن من بين من أخرجتهم مصر ، برغم ذلك ، مؤرخون عظماء وإنما أخرجت قلة من مؤرخين

إخباريين Chroniclers موثوق بهم ، ومن هؤلاء المؤرخين الإخباريين كاهن مصرى يدعى « مانيتو Manetho عاش بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٥٠ ق . م ، وقد جمع قائمة لملوك مصر من كافة ، بل من أقدم الأزمنة على وجه التقريب نظراً لأن عمله قد بقى لنا فقط فى شذرات وفى صور منقولة وهذه القائمة التى تحمل أسماء الملوك تعد الإسهام الوحيد فى مجال المعرفة الذى يمكن أن ندين له فى إنصاف بفضل تدوينه . لقد اتخذت القائمة طابع تقسيم الملوك إلى أسرات ، تماماً كما هو مألوف لنا فى كتب التاريخ وفى المتاحف ، بيد أن هذا التقسيم الذى لم يكن واضحاً كل الوضوح لغير المتخصص ، قد برهن على أنه مضلل ، إذ فى المقام الأول كانت توحى ، ما ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً ، بأن الملوك المجتمعين فى أسرة معينة كانوا ينتمون بصورة لا تتغير لنفس العائلة . ثانياً ، لقد عجزت عن توضيح أن أسرات معينة ، بدلا من أن تسبق أو تعقب إحداها الأخرى ، ورد ذكرها ، كانت ، نتيجة لمنافسات سياسية ، كأسرات معاصرة . ثالثاً ، لما كانت هذه القائمة قائمة على دليل غير كامل ، فلقد بدأت تحصى الأسرات من بدء ما يسميه المؤرخون الآن التوحيد الثانى (تقريباً من ٣٥٠٠ — ٢٦٣١ ق . م) وبذلك تكون قد أغفلت ذكر أية حقبة اجتماعية سابقة كتلك التى ينظر إليها اليوم علماء المصريات على أنها حقبة التوحيد الأول .

لقد كانت الدراسة الحديثة لعلم المصريات حصيلة مخاطرة أوحت بها دوافع لا يمكن فصلها عن تلك الدوافع التى صاحبت البحث كما هو معروف عنها تقليدياً ، إذ عندما غزا نابوليون مصر فى سنة ١٧٩٧ أخذ معه مجموعة ضخمة من « العلماء Savants » المتخصصين بصورة خاصة فى العلوم وفى الآثار . وأياً كانت درجة إخلاص نابوليون نفسه ، فلقد كان يتقبل الأفكار الشرقية — حتى أنه أعلن عن نيته فى اعتناق الإسلام ؛ ويبدو أنه بالرغم من وجود موانع معينة (وقد قرر المسئولون فى النهاية أن الختان Circumcision لم يكن شرطاً لازما لاعتناق الإسلام) ، ووفق رسميا على اعتناقه — ولقد استغل فريق العلماء وقتهم أحسن استغلال ، وإن ما نشروه فى سنة ١٨٠٩ من كتابهم العلمى وهو وصف مصر Description de L'Egypte لينهض دليلاً على ذلك ، ومع ذلك ، فلعل أهم نتيجة للحملة ، كان الاكتشاف الذى توصل إليه ضابط فرنسى ، تصادف أن كان يعمل فى رشيد فى دلتا النيل ، وهو اكتشاف حجر بازلتى يحمل نقشاً دوّن بثلاث كتابات مختلفة ، ولما كانت إحدى هذه الكتابات ، وهى الكتابة الإغريقية ، معروفة ، فقد استطاع

العلماء أن يترجموا على الفور ما ثبت أنه قانون أصدره بطليموس الخامس إيبفانوس Ptolemy v Epiphanus (٢٠٥ – ١٨١ ق . م) أما الافتراض الذى برهن فى الوقت المناسب على أنه صحيح ، فهو بالنسبة للكتابتين الأخريين ، أعنى الهيروغليفية ، والكتابة الأخرى باللغة الأكثر شعبية والمعروفة بالديموطيقية ، وكانتا ترجمتين أمينتين عن الإغريقية . ومع ذلك ، فإن عملية كتابة لغة بحروف لغة أخرى وعملية الترجمة قد أثارتا مشاكل متنوعة . وبنشر هذه الترجمة كاملة فى التقرير الذى سبقت الإشارة إليه ، لوحظ أن النقش على حجر رشيد والمحفوظ الآن بالمتحف البريطانى ، شحذ لأمد طويل ، همم العلماء فى كل بلد أوربى ، خاصة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، ولكننا ندين بالفضل إلى دارس فرنسى شاب لعلم المصريات يدعى جان – فرنسوا شامبليون Jean-François Champollion (١٧٩٠ – ١٨٣٢) تم على يديه تفسير الطلاسم الأخيرة لهذا النقش .

وقد يمكن الاستدلال على شىء من عظمة ما حققه شامبوليون من إنجاز من أمرين ، فى المقام الأول ، كان النص مستمرًّا فى السرد دون مراعاة لأية فواصل بين الكلمات ، وثانياً ، لم يعرف شامبليون ولا أى عالم آخر معاصر له ، فى البداية ، هل كانت العلامات الهيروغليفية تمثل أفكاراً أو أصواتاً أو مقاطع ، أو باختصار هل كانت كتابة رمزية أو صوتية أو محض كتابة مقطعية . كما أن الخبراء لم يدركوا ، اللهم إلا بعد ترو طويل . أن الكتابة الهيروغليفية كانت فى الواقع قائمة على مزج حروف الكتابة الرمزية والصوتية ، وأن بعض الحروف الأخيرة كان عملها مساعداً فحسب على الفهم أكثر من أن تكون عناصر فى النطق ، وهى حقيقة استنبطها شامبوليون أصلاً من زيادة عدد الرموز الهيروغليفة على الإغريقية وليس هناك ما يدعو لذكر كافة المشاكل التى واجهها شامبوليون ، ويكفى أن نذكر فحسب أنه قضى أربعة عشر عاماً ليفسر طلاسم الكتابة الهيروغليفية وأنه قضى عشر سنوات أخرى ليكتسب إلماماً باللغة كان لازماً لتأليف قواعد للغة ولتأليف قاموس – بالإضافة إلى أنه كان يقتل نفسه من شدة الإرهاق فى العمل . وفى سنة ١٨٢٢ صار العالم المثقف فى حوزته الوسائل ، رغم جزئيتها ، التى تمكنه من تفهم عقلية مصر القديمة ، ومنذ غلق المعابد المصرية فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لم يكن فى الإمكان الوصول إلى مثل هذه الثروة .

مصر مهداً للحضارة :

لقد كانت قصة الكشف المصرى ، الذى لقى بطبيعة الحال حافزاً جديداً من التمكن من معرفة اللغة الهيروغليفية ، سجلا للصبر والمفاجأة لم يمتزج به شىء يسير من الخيال الرومانسى. وفضلا عن هذا ، فهى قصة تضاف إليها فصول جديدة سنة بعد أخرى ، وقل أن يعجز كشف جديد على ضفاف النيل عن أن يقدم مادة للصحفيين ، منذ أن لقى علم الآثار المصرية القديمة اهتماماً صحفياً كبيراً فى كل من أوربا وأمريكا ، فضلاً عن أنه لا يعد أى متحف أوربى متحفا كاملا ما لم يحو تابوتاً من توابيتها المنقوشة أو حتى مومياء من مومياءاتها البالية ، وفيما وراء حقيقة أن المصرى القديم قد مارس التحنيط وبنى الأهرامات الضخمة ، إلا أن الشعوب بوجه عام لم تكن على علم تام بما حققه هؤلاء الأناسى الماهرون ، ولا شك أن أصول الفكر واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والاجتماعى أقل إثارة من التنقيب عن مقبرة أو فتح تابوت من التوابيت الحجرية .

أما عن مآربنا ، فإن ما يهمنا فى المصريين كونهم أول أناس ، بل أول شعب يناقش تلك المشاكل الأخلاقية – مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها ، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى – تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم . . وبرغم أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة ربما يرجع إلى مليون سنة قبل ظهور أول « آداب للغة Literature » معروفة ، فإننا لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا من معرفة أن نظن أن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون . لقد كان البابليون ، كما سنرى ، فى اعتبارات معينة ، مفكرين مبدعين بل أكثر من مبدعين كعلماء فيزيائيين ، ولكن تأملاتهم الدينية قد اتخذت لنفسها مبكراً طابعاً خرافياً يمكن أن يستخلص منه قلة من النتائج الإيجابية أو المثمرة . وأخيراً ، فإن حضارة عيلام Elam التى من المحتمل أن تكون قد سبقت بعدة مئات من السنين حضارة كل من بابل ومصر ، فيما عدا ما اشتهرت به من عجلة الفخار ، لا نعلم أنها قد أسهمت إسهاما معيناً فى مضمار الحضارة .

لماذا مصر إذن ؟ هل نستطيع أن نفسر كيف أن بلدا قد وهبته الطبيعة مثل هذه الصورة الغريبة ، إن لم تكن قد غدرت به ، كان لابد له من أن يصبح مهدا للحضارة ؟

وبدون الدخول فى تفاصيل فى الجغرافيا الطبيعية ، يمكننا أن نبدأ بالإشارة إلى أنه بعد الجفاف البطىء فى شمال أفريقيا فى مستهل العصر النيوليتى Neolithic Period (حوالى ٥٠٠٠ ق . م) بقيت مصر منطقة محمية نسبيًّا ؛ وأما عن أن وادى النيل كان يسكنه الإنسان منذ أقدم العصور فهو أمر مصدق به الآن بوجه عام . لقد زودتنا عمليات التنقيب التى بدأت منذ عهد طويل – أو مؤخراً – منذ ١٨٩٤ ، زودتنا بقدر طيب من المعلومات عمن كانوا يقطنون وادى النيل فيما قبل التاريخ ، إذ قد لجأ كثير من هؤلاء الناس إلى ذلك الإقليم الخصب بعد أن لحق القحط بهم وبقطعانهم . ونحن لا نعلم إلا اليسير عن خصائص سكان مصر فى العصر الباليوليتى[1] Paleolithic Period ، برغم أن علماء الآثار لا يفقدون الأمل فى العثور على جمجمة من الجماجم التى يمكن أن يستدل منها على خصائص المصرى الأصيل . وتوحى مثل هذه المقابر التى اكتشفت بأن المصريين فى العصر النيوليتى وما بعده كانوا يضمنون على الأقل مقوماً واحداً من مقومات الحضارة ، أعنى استمرار التموين الغذائى ، ويبدو أنه لم ينعم شعب آخر على ظهر الأرض بمثل هذه الميزة من قبل . وفضلا عن هذا ، فلقد عرفوا كيف يستخدمون المعادن وكيف يستأنسون الحيوانات ، ومن عادات دفنهم ، يبدو أنهم كانوا يغذون ذلك الاعتقاد الراسخ فى الحياة بعد الموت الذى من أجله ، تبعاً لتطور حضارتهم ، سعوا بأساليب مختلفة لأن يعدوا أنفسهم له ، وسنرى فى الوقت المناسب كيف أن موقفهم من هذا العالم ومن العالم الآخر قد أثر على تطور أفكارهم السلوكية .

منذ أن نعت هيرودوت مصر بأنها « هبة النيل » ، جرت العادة على اعتبار ذلك البلد حصيلة سعيدة للظروف الطبيعية البحتة ، كأنه لم يكد أن يكون للإنسان دخل فى الأمر . وهذا سوء إدراك خطير . ومصر « واحة » (وهى كلمة مصرية قديمة) . واليوم . أى إنسان على علم بالبلد الصحراوى يعلم أن مثل هذه الواحات ، برغم حسن موقعها ، تعتمد فى بقائها كمناطق آهلة بالسكان ، على جهود الإنسان ، وحينما يختار الإنسان أن يعيش يجعل الحياة محتملة ، وحينما يضطر للعيش سيجعل الحياة ممكنة . أما عن أن خصب مصر يتوقف على فيضان منتظم ، سببه سقوط الأمطار على تلال الحبشة مما يؤدى إلى زيادة مياه النيل الأبيض من شهر يونيو وما بعده ، فهو يمثل نصف الحقيقة فقط . وقد تبرهن مثل هذه الحمولة الزائدة من الماء والغرين . برغم اختلاف كميتها من سنة إلى أخرى ، على أنها تشكل مزيداً من

(١) وهى فترة طويلة سبقت العصر النيوليتى ، وتبدأ من حوالى ٥٠٠,٠٠٠ سنة ق.م .

الخطورة بقدر ما فيها من بركة ، لو أتيح لها أن تصل إلى دلتا النيل مطلقة العنان . ونحن نعلم فى الواقع من نقوش قديمة مختلفة أن النيل ، نظراً لأن فيضانه يصل إلى مناسيب غير منتظمة ، قد جر الخراب عدة مرات على البلاد . والكوارث العشر التى وصفها « سفر الخروج Exodus » ربما تمثل كما أوضح فلندرز بترى Flinders Petrie ذلك أحسن إيضاح فى كتابه « مصر وإسرائيل » ، صوراً متعاقبة لمثل هذه الكارثة . باختصار ، فإن بقاء مصر يرجع إلى جهود الإنسان ، أعنى الرى ، وهذا فى صدقه اليوم كصدقه منذ خمس أو عشر أو ربما مائة ألف سنة مضت .

ويوضح تتبع نظام الرى فى مصر القديمة أنه كان نظاماً غاية فى الدقة . وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن بلداً يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلو متر وعرضه بضعة كيلو مترات ، ولا يضم أكثر من ٣٠,٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الأراضى المزروعة (أعنى ٣,٥ ٪) لأدركنا أن مشكلة الرى ليست إلا مشكلة حكومة والعكس بالعكس[٢] . ولضمان مراقبة لا الفيضان السنوى فحسب بل كذلك توزيعه توزيعاً عادلا ، كانت حكومة مصر فى حاجة لأن تكون فى آن واحد قوية وتتركز فى يدها السلطة ، وهذا يعنى أن الفرعون كان مضطراً لأن يستخدم كافة الوسائل الممكنة ، بما فى ذلك ادعاء الألوهية ، لتدعيم تسلطه السياسى ، ومع ذلك ، فإنه من الملاحظ من وجهة النظر الإدارية ، أن الأرض كانت مقسمة بذاتها بصورة طبيعية إلى مديريات أومناطق صغيرة Nomes كان عددها أربعين . وتتيح لنا أكثر من ورقة من أوراق البردى ، أن نتبصر فى طغيان الحكام المحليين ، ممن كانوا يعتقدون أنهم فى مأمن من الرقابة الحكومية ، الذين ربما حكموا البلاد من وقت لآخر[٣] . وكان الخطر المشترك ، وهو فى حالة مصر خطر الإبادة ، هو سبيل الوحدة الصائب . لذلك فإنه قد حدث أن مصر ، وقد عرف شعبها مرة مصادر قوتها وضعفها ، لم تُخرج أول نظام اجتماعى عظيم فحسب (ومن المحتمل أن كان تعداد سكان مصر القديمة حوالى سبعة ملايين) ، بل كان المجتمع المصرى ، كما سبق أن أشرنا ، أقوى مجتمع بشرى وأكثر صبراً وجلداً عرفه التاريخ . أما عن التاريخ الدقيق الذى تم فيه أول توحيد لمصر فهو ما لم يدركه أولئك الذين هم ، فى تقبلهم للترتيب الأصلى للأسرات ، أرّخوا حكم الملك « مينا »

---

(٢) على أضيق جزء من النيل عند قة (الشاطئ الشرق) يمكن مشاهدة لوحة منسوب النهر التى أقامها فرعون الأسرة ١٢ منذ ٤٠٠٠ سنة مضت ، وهى تعلو المنسوب الذى بلغه النهر اليوم بمقدار ٣٠ قدماً تقريباً .

(٣) انظر قصة الفلاح الفصيح .

من حوالى سنة ٣٣٠٠ ق . م . ونحن ندين لعلماء الآثار المحدثين ، أمثال « فلندرز بترى » « وبريستيد » ، بما تجمع لدينا من معلومات عن التوحيد الأول الذى يُظن بأن تاريخه من سنة ٤٠٠ ق . م . على الأقل[٤] .

لقد جرت العادة على تكريم الفلكى الذى يكتشف جرماً سماويًّا جديدًا ، والكيميائى الذى يفصل عنصراً جديدًا ، والفيزيائى الذى يفسر قانوناً جديدًا من قوانين الطبيعة ، ولكن لأسباب غير واضحة ، يندر أن نقدِّر ما ينجزه الأثرى أو المؤرخ الذى يكتشف عصرًا جديدًا . وهذا أمر يؤسف له . لأنه ليس هناك من شيء فى الوقت نفسه أبهج وأشق على النفس من فتح طاقة جديدة على الماضى . وإذا لم يكن فى استطاعتنا بعد أن نقول كيف ولماذا بدأت الحضارة ، فإنه من الأفضل لنا على الأقل أن نكون قادرين على الإلمام بهذه المسائل إذا عرفناها مرة ، كما نعتقد الآن أننا نعلم متى بدأت .

ولم يلق كاتب من الكتَّاب مزيداً من الضوء على أصول الحضارة وعلى التطوير الفكرى مثلما فعل الأثرى الأمريكى ج . هـ . بريستيد J.H. Breasted ، وقد أتاحت له حياته التى كرسها للكشف فى الشرق الأوسط ، ومصر بوجه خاص ، أتاحت له ، أفضل وضع لأن يأخذ على عاتقه القيام بذلك التصويب للحقائق التاريخية التى أظهرت ضرورتها الكشوف الحديثة سواء تلك التى قام بها أو من قام بها غيره من الأثريين .وفى تعريفه لما أسماه فى صورة لم تكن بعيدة عن الصواب ، « الماضى الحديث » ، وجّه بريستيد الأنظار إلى حقيقة أن الحياة المتحضرة ، كما نفهمها ، لابد أنها قد ازدهرت فى الألف سنة بين ٣٥٠٠ ق . م . و ٢٥٠٠ ق . م وهى فترة التوحيد الثانى . وفهم مثل هذه الحقبة البعيدة ليس بالأمر السهل ، ولكن يمكن تقدير فكرة أنها كانت حقبة فريدة من حقيقة أن أوربا ، فى ذلك الوقت ولعدة قرون بعده ، كانت لا تزال فى العصر الحجرى . وكان بريستيد فى أول الامر يكنى عن « الحضارة » بشيئين : أولها ، نظام اجتماعى قائم على قدر من القانون والنظام ، وثانيهما ، غرض واع يحرك ذلك النظام الذى به يبدو أن المواطنين ، أو على الأقل مجموعة منهم ، يسعون به لاتباع مثل عليا من السلوك ، حتى لوكان الأخير أشرف فى النقض عنه فى المراعاة . وهذا التعريف العام له أهميته ، لأن معول الأثرى قد جاء بدليل على أن هناك كثيراً من

---

(٤) اكتشف بريستيد على جزء من التسجيلات التاريخية الملكية فى المتحف المصرى بالقاهرة ، صورا لملوك فى الفترة السابقة لعهد الأسرات يرتدون تيجاناً مزدوجة ، رمزاً لهذا التوحيد المبكر .

الحضارات أقدم من حضارة مصر أو على الأقل مساوية لها فى القدم ، مثل سومر وعيلام وبابل . وسنتحدث كثيراً عن هذه الحضارات فى الوقت المناسب . ولكن يمكننا فى الوقت نفسه أن نناقش ادعاء بريستيد بأن الحضارة المصرية لم تدم طويلاً فحسب ، وربما فاقت كل ما عداها ، بل أسهمت جوهريًا عن طريق تأثيرها على العبرانيين ، فى تطوير حضارة الغرب. وخلال هذه الألف السنة الفريدة كانت حضارة بابل تتطور بالمثل ، برغم أنه لم يكن هناك شيء يماثل نفس استمرار الحضارة المصرية ، وبرغم أنها كانت دونها ثقافة . ولكن ماذا تدين به الثقافة الغربية لفكر بابل ، باليسير جدًا ، باستثناء ما ادعى العبرانيون ملكيته من ثقافة ، بما فى ذلك قصة الطوفان العظيم الذى ربما كان ، كما رأينا ، أقل من أسطورة عن أن يكون كارثة واقعية فى حوض ما بين النهرين [٥]. وشريعة حامورابى ، برغم ما بها من بنود مستنيرة ، لا تمثل مرحلة تطور فى الفكر السلوكى كما هى الحال بالنسبة للوثائق المصرية الجديرة بالاعتبار والتى سننتقل إليها بعد قليل .

الحضارة المدونة وغير المدونة :

سيتضح أن الحضارة التى نشير إليها ليست إلا حضارة مدونة ، وقد تمسك بعض المؤرخين ، أو على الأقل ادعوا ، بأن الحضارة بدأت باختراع الحروف ، وليس هناك من سبب لافتراض أن هذه هى الحقيقة . ولربما يجد الدافع إلى الفحص وإلى التجميع وإلى التسجيل تعبيراً عند النقطة التى أحرزت فيها الحضارة ، كما توصف الآن ، تقدما بالفعل بطريقة ما ، ربما بمرحلة تفوق مرحلة النضج ، بعد عدة قرون من الميلاد بكل تأكيد . ولو كنا ، مثلاً ، على صواب فى افتراض أن التوحيد الأول فى مصر يؤرخ فى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . فقلما يثير الدهشة أنه لم يعثر على وثيقة مدونة حتى ١٥٠٠ سنة بعد ذلك على الأقل ؛ وفضلا عن هذا ، لم تكتشف بوجه عام أية آثار تنتمى إلى هذه الحقبة . ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا نقطة أخرى ؛ كم عدد السنين التى لابد وأن تكون قد انقضت على تجربة التحالف المؤقت أو الفاشل ، والتدبير الدبلوماسى والتنافس من أجل الزعامة ، وإقصاء المتنافسين وطرد الأجانب [٦] ، قبل أن يتحقق ذلك الاتحاد القومى الأول نفسه ، الذى كان

(٥) انظر أيضاً الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٦) فرق المصريون بين « الناس » (أى أنفسهم) و« الأجانب » ، تماماً مثلما كانت كلمة « أرض مصر » تعنى أيضاً « العالم » أى العالم المتحضر.

واضحاً أنه غير مستقر؟ وليست لدينا أية أسانيد للإجابة عن هذه الأسئلة : وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عملية التحضر ، وقد بلغت ذروتها مبكراً ، لابد أنها قد بدأت أكثر تبكيراً عما يمكن أن نظن فى الوقت الراهن ، أو مبكرة جداً كما لو لم تكن لها بداية بالمرة ، لو كنا بذلك نفترض مسبقا حقبة من الحياة البشرية خلت حتى من أكثر المجتمعات بدائية . ومع ذلك ، فلو أننا افترضنا مسبقاً مثل هذه الحالة للجنس البشرى ، لواجهنا أقصى غموض عن كيف كان على الإنسان أن ينجح فى الخروج منها : وهو غموض يكاد يبلغ فى صعوبة حله صعوبة حل ذلك الغموض الذى يكتنف تطور الإنسان من عالم الحيوان .

وهذه الأمور ، بغض النظر عن صعوبتها الجوهرية ، قل أن تدخل فى نطاق دراستنا ، أما ما هو أكثر ملاءمة ، برغم ما تكتنفه من صعوبة مماثلة فهو مسألة لماذا كان ينبغى على الإنسان ، وقد طور تكنيكا لتسجيل أفكاره ، أن يسير قدما فى تطويره بمثل هذه السرعة ، حتى إنه فى خلال بضعة آلاف من السنين اكتسب سيطرته الراهنة على الطبيعة ، ومع ذلك فهناك مسألة أكثر إثارة للاهتمام وإن كانت أقل توكيداً إلى حد كبير ، و وهى مسألة : لِمَ فشلت رؤيته السلوكية ، التى تبدو أنها استيقظت منذ خمسة آلاف سنة مضت ، فى مواكبة إنجازاته التكنيكية : وهى حقيقة مسلم بها لدرجة أن نفس عباراتها قد صارت عبارات مبتذلة . صحيح أن التقدم المادى قد نعم ببداية منذ بضع مئات الألوف من السنين وأن تطور الكتابة كان يمثل مرحلة على طريق رحلته مثل تطور الطباعة الذى أعقب ذلك بثلاثة آلاف سنة ثم اكتشاف الراديو بعد ذلك بخمسمائة سنة ؛ ولكن ، كما أشار بريستيد فى كتابه « فجر الضمير » فإن تطور الفكر السلوكى فى مصر خلال التوحيد الثانى يمثل أبعد نقطة يمكن أن يبلغها مثل هذا التأمل فى مرحلة عدم وجود الإلهام الدينى . وفى هذه الألف السنة من الانعكاس السلوكى نجد شيئاً لم يحدث من قبل ذلك قط ، لقد كان الناس يفكرون تفكيراً منهجيا فى مصيرهم ، لأول مرة . فإلى جانب اهتماماتهم بُعددهم وزينتهم وتكنيكاتهم ، أضافوا اهتماماً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن أى من هذه الاهتمامات ، أعنى الاهتمام بالضمير الأخلاق . .

تمثيلية منف :

ما هو عمر وأهمية تقليد شفوى يفسر فلسفة لابد أنها كانت موجودة فى مصر، على الأقل،

يمكن استخلاصه من « أقدم أفكار مدونة » معروفة لنا . هذا متضمن فيما يطلق عليه تمثيلية منف (وكانت منف عاصمة مصر القديمة) التى دونها ، كما يعتقد بريستيد ، كهنة من هليوبوليس فى منتصف الألف الرابع ق . م . وليس لدينا النص الكامل لهذه القطعة الأدبية الفريدة . وبقاؤها حتى فى أجزاء مشوهة ، هو نتيجة حادثة سعيدة تاريخها باختصار هو كما يلى : لقد أمر الفرعون الأثيوبى شباكا Shabaka الذى حكم مصر فى القرن الثامن ق . م . (وكان معاصراً لأشعيا Isaiah كما جاء ذكره فى العهد القديم) أن يُنسخ النص القديم من ورقة بردى قديمة ويُنقش على حجر أسود ، إذ ربما كان هذا أفضل مكان لحفظ مثل هذا العمل الجليل من « أعمال الأجداد » (لأنه كان يسميه جديًا بهذا الاسم) من أجل الأجيال القادمة . ولقد استخدمت هذه الكتلة الحجرية ، المحفوظة الآن بالمتحف البريطانى ، استخدمت لسوء الحظ لعدة سنوات كحجر سفلى لطاحونة ، ومن ثم فإنه من جراء طحن قمح أجيال عديدة تآكل جانب من رسالتها ، ومع ذلك فقد تبقّى قدر كاف من النص يتيح لنا أن نتدارك إلى حدٍ ما ، ما تآكل منه .

أما عن أن أقدم أفكار مسجلة لابد وأنها اهتمت بمناقشة الحق والباطل ، فهى حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، كما أنه لا يقل عن ذلك أهمية أن المناقشة التى لابد وأن يدار جزء منها فى شكل تمثيلى كانت تميل به إلى توكيد الأساس الدينى للتمثيلية ، ولكن الشيء الذى يشدنا شدًّا قويًّا لأول قراءة لهذا الإنتاج الأدبى هو ما به من تعقيد بالغ . ويجب أن نذكّر أنفسنا أن هنا البداية : هنا طفولة الفكر هنا ، أكثر من ألفى سنة قبل طاليس ، تعبيرعن وجهة نظر فلسفة منظمة عن الحياة ، ومع ذلك عُبّر عنها فى لغة توحى بتقليد عمره عدة قرون ، وبمعنى آخر ، هنا شيء أكثر شبهاً بفلسفة ناضجة : فكر شكلته عقول كثيرة ، هو أقرب لأن يكون فكراً عاماً حتى يكون بالفعل غفلا من الاسم . هذه الظروف وحدها تنهض دليلاً على أنه ، قبل اختراع الكتابة بوقت طويل ، بدأ فكر منظم ومرتب . وماكانت تقوم به الكتابة من خدمة بصورة خاصة هو إقامة مبدأ سليم ، إقامة معيار . ومن ثم ، فلقد صارت عاملا ضروريًّا من عوامل الاستقرار الاجتماعى ، صارت وسيلة تُشكّل بها العقلية الشعبية وتوجّه . وبدون الكتابة كان لابد لنا من أن ننظر إلى الماضى لاكمؤرخين بل كأثريين ونحن بعقلية الأخير ، نقوم فى الواقع بمسح لتطور الإنسان من العصر الباليوليتى حتى العصر الذى نتحدث عنه . والكتابة

وسيلة للاستمرار الروحي والاستمرار الروحي شرط من شروط التاريخ (٧) .

كان تجميع نص كل من تمثيلية منف وما يتلوها من المحاورة الفلسفية البالغة الغموض ، يعد فوزاً أحرزه علماء من جنسيات مختلفة . ونحن لا نستطيع هنا إلا أن نلخص محتوياتها التى لو فهمت كما ينبغى لها أن تُفهم . لألقت ضوءاً ، لا على عقلية الشعب المصرى فى ذلك العصر البعيد فحسب ، بل أيضاً على تطور التأمل الفلسفى ، وهناك شىء مثير بصورة خاصة فى فحص عمل من مثل هذه الأعمال الغارقة فى القدم ، إذ أن نفس طبيعتها لم تكن معروفة حتى بضع سنوات مضت ، وبهذا العمل أميط لنا اللثام عن مملكة جديدة للفكر.

يبدأ النص بابتهال إلى الإله بتاح Ptah وكان بتاح وقتها الإله المحلى لمدينة منف ، وكان فى الأصل ، كواحد من بين عديدمن الآلهة ، يقوم بدور القديس الراعى للصناع ، ولكنه اتخذ لنفسه فيما بعد مركزاً مرموقاً لاشك أنه كان نتيجة اقترانه بالصنع أو الخلق بوجه عام . وعندما أخضع الملك مينا كلا من مصر العليا ومصر السفلى ، يبدو أنه رفع مكانة بتاح إلى منصب كان يحتله حتى ذلك الوقت إله الشمس ذاته . وكان السبب هو أن منف قد صارت ، وكتب لها أن تظل لمدة طويلة ، عاصمة مصر المتحدة بالصورة التى أظهر بها بتاح نفسه أنه معلم بنَّاء .

كيف تمسك إله الشمس تقليديًّا بمثل هذا النفوذ ؟ من السهل الإجابة عن هذا السؤال ؛ إذ أن مصر تدين ببقائها الجغرافى إلى قوتين طبيعيتين : مياه النيل وأشعة الشمس وكنتيجة لذلك اتجه شعبها إلى عبادة هاتين القوتين وكان إله الشمس رع ، الذى كان مقره هليوبوليس (وهو اسم إغريقى معناه مدينة الشمس ، وكانت تدعى فى الأصل أون On) يمثَّل تقليديا بصقر ، الطائر الذى كان يعتقد بأنه فى طيرانه أقرب إلى السماء . وكرمز ملائم له كان يصور دائماً كقرص مجنح أما إله النيل ، فلم يكن إلها للماء فحسب بل كان أيضاً إلهاً للخصوبة التى كان معروفا أن النهر يأتى بها . ولما أخذ يزداد نفوذ هذا الإله بالبرهان الدائم على ما كان يجود به ، لذا فقد صار منافسا لإله الشمس واتخذ لنفسه الكثير من خصائص الأخير ، وكان اسم هذا المنافس أوزيريس Osiris .

ولنعد إلى إله منف حديث الترقى . هل كان الابتهال الموجه إلى بتاح مجرد إجراء شكلى وتبجيل تقليدى ؟ لا يبدو الأمر كذلك ، إذ أن الصفات المعزوة إليه جديدة تماماً ، إذ يوصف

(٧) قارن ذلك بهذه العبارة : « تمكن اللغة الإنسان من الوجود تاريخياً » (هولدرلن ، مقتبسة من كتاب هايدجار وعنوانه : « هلدرلن وجوهر الشعر Heidegger's Hölderlin and the Essence of Poetry. » (طبعة ١٩٣٦)

بتاح بأنه « قلب ولسان الآلهة » . لماذا بالذات « قلب » و « لسان » ؟ هل هاتان الصفتان مجرد استعارتين تقليديتين؟ قد يعتقد العلماء غير ذلك ، إذ كان المصريون يقصدون بعبارة « القلب » شيئاً أكثر شبهاً بـ « العقل » أو « الإدراك » فى حين يشيرون إلى اللسان » بـ « الحديث » أو « التعبير » ، وخاصة تلك الصورة من التعبير الرسمى أو التعبير بمقتضى المقام Ex Cathedra ولكى يكون « قلباً » و «لساناً » معا لا ينبغى أن يكون فحسب مجرد مترجم للآلهة فى جلسة عمومية ، بل العقل المقدس ذاته المشترك فى عملية الخلق بتقديم فكرة ثابتة عن أفكاره .

مثل هذه الفكرة قد تبدو غامضة بالأحرى. ولا شك أنها كذلك ، وهى مع ذلك ، تصبح أكثر فهماً لو حاولنا أن نفهم ماذا كان يدور بخلد الكهنة عندما أصدروا مثل هذه العبارات. ومن فحص النص الكامل ومما نعرفه عن الفكر المصرى المبكر ، يبدو واضحاً أن مؤلفيها من الكهنة قد اشتركوا فى مناقشة عن كيف بدأ العالم ، أعنى ، من الذى أنشأه. وأيًّا كان ظننا فى أسلوب تعبيرهم ، فنحن لا نستطيع أن ننكر أنهم كانوا يتناولون بحث مسألة معقولة وبالغة الأهمية – مسألة كرس لها المفكرون الأولون من الإغريق والعبرانيين ، بالمثل ، كرسوا أنفسهم لحلها ، وهى مسألة مازلنا نحن فى زماننا لا نستطيع أن نقدم لها إجابة حاضرة . لقد بدأ بادئوا التفكير من البداية على الأقل .

وبالنسبة لطبيعة إجابتهم عن هذا السؤال ، قد يميل الدارس العصرى إلى الاعتراض ، وتبدأ معظم الكتب الدراسية التى تتناول تاريخ الفلسفة ، بتأملات المفكرين الإغريق السابقين لسقراط ، الذين كان هدفهم هو اكتشاف العنصر الأصلى أو مجموعة العناصر ، التى نشأ عنها عالم الطبيعة ، فنادى طاليس Thales بأن العالم نشأ كله عن الماء ، ونادى انكسماندر Anaximander بأنه نشأ عن نوع من الضباب ، وقال أنكسيمينز Anaximenes إن شيئاً أكثر غموضا يدعى « اللامحدود The Boundless» هو الذى نشأت عنه الأشياء . وبالنسبة لأذهاننا الدقيقة التفكير تبدو هذه الإجابات بدائية ، وهو من غير شك أكثر مما كانت عليه فى الواقع ، لأن الفلاسفة الأيونيين لا يمكن اعتبارهم بسطاء لمجرد أنهم كانوا يقدمون حلولاً بسيطة . وما من شىء أقل بساطة من التبسيط الحقيقى . ولقد نظر المفكرون المصريون ، الذين عاشوا حوالى ثلاثين قرناً سابقة للإغريق ، نظروا إلى المسألة نظرة مختلفة جداً. لقد نادوا – ويجب أن لا نصرف النظر عن الجواب على اعتبار أنه غير معقول دون أن نوليه اهتماماً كبيراً – بأن

الكون نشأ من الفكر ، ليس فكراً عامًّا بقدر ما هو فكر من نوع معين ، فكر مدرك ، هادف أو متجسد .

وقبل التعليق على هذه الفكرة التى تبدو فكرة جديدة ، يجدر بنا أن نلقى نظرة مرة أخرى على النص ، وهنا نقتبس ، كما سنقتبس فيما بعد ، من ترجمة بريستيد : أعلن بتاح ، كما نمى إلى علمنا ، بوصفه نائباً عن كل الآلهة غيره ، «أعلن أسماء كل الأشياء ، خَلَق بصر العينين وسمع الأذنين وتنفس الأنف حتى يمكن أن تنتقل إلى القلب ، وهو (القلب) المتسبب فى أن كل نتيجة يجب أن تظهر ، وهو اللسان الذى يعلن عن فكر القلب . . . كل كلمة مقدسة جاءت إلى الوجود من خلال مافكر فيه القلب وأمر به اللسان ، ومن ثم كان قيام المراكز (المناصب الرسمية) وتحديد وظائف (الحكومة) الأمر الذى أمد بكل ألوان القوت والغذاء» . وبعد ذلك يقول : «ومن ثم فقد تبين وكما أدرك أن قوته (قوة بتاح) كانت تفوق قوة كل الآلهة ، ومن ثم أحس بتاح بالرضا بعد أن صنع الأشياء كلها و نفَّذ كل كلمة مقدسة» .

والمقتطفات السابقة تلخص فكرة هى ، مثل كثير من الأفكار المماثلة فى الأدب المصرى ، تعرضت لتكرار خطير. ولما تقلد بتاح فى جرأة مهام إله الشمس أعلن أنه خالق ومحرك الأشياء كلها ، وكان عضواه الخالقان هما القلب واللسان ، البؤرتان الخاصتان بالفطنة والتعبير ، لذلك فإن كل شىء فى العالم هو تجسيد للفطنة المدركة التى «جاءت بها إلى الوجود» . وكما ، نعلم لم يخلق العالم كما لو كان بفعل السحر. ولم يُخلق فقط طبقا لخطة فطنة ، لقد جاء إلى الوجود ويحافظ باستمرار على وجوده بالعملية الفعالة للفطنة ، التى هى تنفس الإله . وفضلاً عن هذا ، فإن بتاح فى استعراضه لما صنعه ، كان راضياً ، أعنى ، مثل إله الخلق «رأى أن ما صنعه كان صالحاً» .

ولكى نفهم الفلسفة القديمة ، فإننا فى حاجة لأن نعد أنفسنا لأن نفعل أمرين : الأول يجب أن نتعلم التعود على مصطلحات فنية غير مألوفة ، والثانى يجب أن نكون على استعداد للإيمان بأن أجدادنا كانوا فى معظم خصائصهم راشدين وناضجين بقدر ما نحن عليه . هناك الكثير من الحديث الطائش الذى يدور حول «طفولة الجنس البشرى» كما لو كان الناس قد ظلوا لقرون أو حتى لآلاف السنين فى حالة طفولة ، منها أخذوا يكافحون من أجل الوصول إلى مرحلة المراهقة حوالى زمن عصر النهضة وأخذوا منذ ذلك الوقت يشبون عن الطوق . وأما عن أن القوى العقلية للإنسان العاقل **Homo Sapiens** قد طرأ عليها أية زيادة ملحوظة منذ أقدم

العصور ، فهو أمر لم يثبت بعد . وإذا كان مجرد الحجم هو ما ينبغى أن يكون معياراً يعتمد عليه ، فإن لدينا حقيقة مذهلة ، وهى أن القياسات الجمجمية لإنسان كرومانيون Cromagnon (حوالى ٢٠,٠٠٠ ق . م) تكشف عن عقل أكبر بمقدار خمسين فى المائة ممن خلفوه . ونحن نعيش فى عصر متأثر بقوة التكنيكات ، يميل إلى معالجة مشكلات الوجود من زاوية مادية ، ولكن علينا فقط أن نتأمل لحظة لندرك أن الكثير من خلفيتنا الثقافية قد تشكلت من تقاليد مرعية مختلفة جداً . ولم يكن الكهنة مؤلفو تمثيلية منف ، بناء على فحص أكثر دقة ، بالغى الخيال فى تأملاتهم كما يبدون لأول وهلة .

ترجمة مبكرة لفكرة مألوفة :

لما يقرب من ألفى سنة استمع من كانوا يؤمون الكنائس المسيحية ، على اختلاف درجات انتباههم ، إلى فاتحة الإنجيل الرابع ، « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » . كم عدد من يدركون التاريخ الذى يكمن وراء هذه الكلمات – تلك الكلمات الفريدة ، أعنى ، فيما عدا المعنى الجديد المعطى لها فى الإنجيل ؟ لأنه كما نعلم ، يسترسل الكاتب ليقدم بياناً ، وقد أعطى الأفكار الفلسفية التقليدية للعصر ، لابد وأنه يبدو جديداً ويحمل تحدياً فى آن واحد ، وبعد أن أعلن أن فى البدء كان الكلمة عند الله ، وكان فى الواقع : الله ، ينتقل إلى الادعاء بأنه نتيجة للرؤية المسيحية صار الكلمة جسداً و « عاش بيننا » . وبرغم أن تأليف الإنجيل الرابع يعزى إلى القديس يوحنا St. John إلا أننا لا نعرف على وجه التحقيق من كتبه ، كما أننا لا نعرف بصورة قاطعة متى كتب . ونحن نعتقد ، على أساس الاكتشاف الجديد لقطعة من ورق البردى[٨] أنه كان معروفا فى مصر فى وقت مبكر فى القرن الثانى ب . م . وهو وقت يعد أكثر تبكيراً مما كان يفترضه بعض الخبراء . ومن ناحية أخرى ، نحن نظن أننا نعلم بصورة قاطعة لم كُتب . لقد ألف فى الأصل باللغة اليونانية ، كغيره من الأناجيل الأخرى ، وكان المقصود به فى بادئ الأمر أن يقرأه قراء إغريق ، ولهذا فقد استخدم نوع المصطلحات اللغوية التى قد تكون مألوفة بطبيعة الحال للإغريقى الفطن . وفضلا عن هذا ، لقد استدعى تقليداً خاصًّا للفكر الذى صار له الإنجيل المسيحى متمما . فى البدء كان الكلمة

---

(٨) قارن ذلك بما جاء فى كتاب « جزء لم ينشر من الإنجيل الرابع » إعداد س . هـ . روبرتس .
An unpublished Fragment of the Fourth Gospel, Ed. by C.H. Roberts, 1935.)

Logos وكان الكلمة واحداً مع الله . وبعد ذلك صار الكلمة لحماً وواحداً مع الإنسان . ومن ثم كان الكلمة المجسد ، المسيح ، وكذلك أيضاً كلمة : عمانويل أى «الله معنا»[٩] .

ما هو المعنى الملازم لعبارة الكلمة logos فى الفلسفة الإغريقية ؟ لقد ورد ذكرها لأول مرة فيا بقى من تأملات هراقليطس Heraclitus وكانت تعنى عنده مبدءاً إبداعيًّا ، نوعاً من تفكير خصب ، محرك لنشاط مقدس . ثم نجدها بعد ذلك عند أفلاطون Plato الذى يستخدمها للإشارة إلى ذلك المظهر من قوة الإله الخلاقة التى ينجم عنها تعدد أعماله . « والكلمة » هى عامل التنوع ، ولكنه تنوع منسق ، ليس مجرد إسراف . ومفهوم « الكلمة » له أيضاً ما يوازيه فى الفكر العبرى ، وكان يمثل أحياناً فى أنه « الحكمة المقدسة » . ويبدو ، فى الواقع أن فكرة « الحكمة » هذه ، برغم ما يؤيدها من الفكر الإغريقى ، لها بالفعل تاريخ عبرى طويل وأصيل ، وهذا يحفزنا بدوره إلى التساؤل هل كان العبرانيون ، الذين خبروا الكثير من التأثير المصرى ، لا يدينون بجانب من هذه الفكرة إلى المفكرين المصريين الأوائل . وباختصار فإن مؤلفى تمثيلية منف ، نظراً لكونهم كهنة ميتافيزيقيين ، ربما كانوا أول من أحكم وضع مفهوم « الكلمة » . إن ما لم نجده غير معقول عند أفلاطون ، وعند فيلو السكندرى Philo of Alexandriaوفى إنجيل القديس يوحنا ، قل أن يثير دهشتنا وحيرتنا بالنسبة لهؤلاء المصريين الأوائل . وإذا كانت هناك دهشة ، فهى ليست مقرونة إلى حد كبير بالفكرة ذاتها بقدر ما هى مقرونة بتعبيرها المبكر الجدير بالاعتبار . وجدير بالذكر أن أول أفكار مدونة للإنسان تدور حول قوة الفكر نفسه .

وإذا كانت تمثيلية منف ، وإذا كان الحديث فيها لا يحويان أكثر من سلسلة من عبارات ميتافيزيقية ، لكانت أهمية هذه الأعمال محدودة ، ولكن للنص أهمية كبيرة أكثر من ذلك . وتماما مثلما نجد هنا أولى الميتافيزيقيات ، نجد أولى الأخلاقيات أو السلوكيات . ولما كان ذلك مطلباً ضخماً من أى نقش قديم ، لذا يجب أن نذكّر أنفسنا بأن الكلمات المكتوبة لابد قد جرى التحدث بها منذ وقت طويل مضى ، وأنها نوقشت ذهنيًّا منذ وقت أطول . وبالنسبة للمسائل الأخلاقية ، يجب أن نفترض مسبّقاً وجود أجيال كثيرة من خبرات بشرية مختلفة ، لأن الناس لا يبدءون فى التفكير فى المسائل السلوكية تفكيراً منهجيًّا حتى يصبحوا على دراية بصراع الولاء ، وحتى يمكن أن يكونوا على إستعداد للتمييز بين الالتزام والمصلحة الذاتية .

(٩) سنناقش هذه الفكرة فيا بعد فى خاتمة الكتاب .

وحتى اليوم ، فإن هذا التمييز غير معروف دائماً ، ولقد كان هناك فلاسفة يعتبرون إنكار هذا التمييز أمرا ذا اهتمام بالغ . ومع ذلك ، فإن ما يشدنا على أن له أهمية بصورة خالصة فيما يتصل بفلاسفة منف هو أنهم يسعون لإقامة نمط مقدس للسلوك الأخلاقى . يقول النص : « تمنح الحياة للمسالم ويمنح الموت للمذنب » وهى عبارة برغم أنها غامضة ، إلا أنه يوضحها إلى حد ما التعريف الذى يتلوها عن المسالم بأنه « هو الذى يفعل ما هو مرغوب فيه » وعن المذنب بأنه « هو الذى يفعل ما هو مكروه » . وفى محاولة لإعادة تكوين رسالة لمثل هؤلاء المفكرين الأولين ، نعتمد بطبيعة الحال على ترجمة نثق فيها ، والله أعلم بصحتها . وأعظم العلماء ممن يتميزون بالتواضع ، يقرون ذلك إلى حد بعيد . ومن ثم ، فمن رأى الأستاذ إيرمان Erman وهو أحد كبار علماء المصريات ، وقد تتلمذ بريستيد على يديه ، أن عبارة « هو الذى يفعل » يجب أن تُصوب لتكون « هو الذى يصنع » وهذه الترجمة قد تغير معنى العبارة بطرحها فكرة ، وهى ليست فى حد ذاتها غير معقولة ، عن وجود إله هو الذى « خلق » الخير والشر . ويفضل العالم سيث Sethe وهو عالم ألمانى آخر من علماء المصريات ، يفضل أن يعتقد بأن دور الإله هو دور مقسم الجزاءات والعقوبات ، يمنح الحياة لمن يحققون مشيئته والموت لمن لم يحققوها . لو كانت هذه الترجمة صحيحة ، كما يميل بريستيد إلى الاعتقاد ، فقد ننجح فى بعض التبصر فى الأفكار السلوكية السائدة . وواضح فى المقام الأول أن الأخلاق بالفعل شىء « اجتماعى » ، ومن ثم فهى خاضعة لنظم اجتماعية . ومن خطين محتملين للسلوك ، خط واحد فقط تقره المدينة ومن ثم يقره إله المدينة . ثانياً ، يستتبع ذلك أن الإله هو كائن من الكائنات ، وسلوك الكائنات البشرية بالنسبة له أمر له أهمية حقيقية ، وليس هو فحسب رئيساً صوريًّا ، بطلا ، راعياً وطنيًّا ، بل هو أقل غموضاً فى كيانه الميتافيزيقى مثل إله أرسطو . هو قاض ، مرشد وصديق للصالح وعدو للطالح .

عند هذه النقطة يجب أن نقول كلمة تحذير : إن السلوك الذى يفرضه إله أو يقرره الكهنة أو الحكام ، وربما لا يتطلب أكثر من مراعاة خارجية ، ليس هو بكل تأكيد ما نعنيه بالأخلاق . هو بالأحرى عادة اجتماعية ، شىء خارجى . هذا التمييز له أهميته . ولا شك أن كهنة منف كانت لهم مصلحة معينة قوية جدًّا فى الحفاظ على العادات ، أو ، لو أخذوا وضعهم كخدم لسيد جديد ، فى إقامة عادة جديدة . ولكن ما يمكن تمييزه ليس بالضرورة مخالفاً . والملامح التى اتضحت واستبانت فى الأخلاق هى ظاهرة بالفعل بلا أدنى ريب فى العادة .

وعلى شاكلة كثير من الحكام المتأخرين . ربما كان يخفى الفرعون رغباته الشخصية بطرحها على أنها فرضت من لدن الإله منذ الأبد . ولقد فعل حامورابى Hammurabi نفس الشىء . ونحن نعلم من النقوش على المقابر وعلى الأهرامات أنه كلما زاد ادعاء الفرعون بقدسيته ، زاد الناس فى عبادته . وفى الوقت الذى ادعى فيه البابوات فى حضارة متأخرة أنهم نواب الإله ، ادعى فراعنة الأسرات الأولى أن لهم سلطاناً قوياً بعيد المدى ، حتى أن الطبيعة ذاتها كانت خاضعة لنفوذهم وسلطانهم ، كما أننا لسنا بحاجة إلى أن ندعى بأن كل الحكام المطلقين أمس واليوم ، تحركهم دوافع « كلبية » ، يخفون سلطانهم بدعاية مسرفة هم أنفسهم لا يؤمنون بها . وفى غالبية الحالات ، كان الفرعون مقتنعا بقدسيته الشخصية كاقتناع رعيته ، وكان رعاياه مجبرين على طاعته ، وكان هو مجبراً على طاعة نفسه ، ومع ذلك ، ولكى يدعم مسئولياته الضخمة ، كان فى حاجة إلى تأييد طائفة الكهنة المنشغلة بالتوكيد الدائم لقدسيته . وسنرى فى الوقت المناسب كيف أن الفرعون الواحد لو يعتمد فقط على اعتقاده الشخصى فى نفسه ، فإنه لا يلبث أن يتجرد فجأة من السلطة .

وتمثيلية منف ، لو فسرت تفسيراً صحيحاً ، لأوضحت أن عالم الطبيعة أو الكون هو نتيجة الفطنة المقدسة ، ومن ثم فإن كلا من الزراعة والحكومة مظهران لهذه الفطنة . والآله ، فى الواقع ، لم يفكر فحسب فى الإنسان على أنه كائن ، بل ، فى تفكيره فيه ، يفكر خلاله ، وبهذا يهديه فى اكتساب تكنيكات مثل تكنيكات الفلاحة والزراعة . والأصل المقدس للفنون والحرف إلى جانب المهارة فى استغلال الظواهر الطبيعية مثل النار ، ينعكس فى علم الأسطورة فى كل ثقافة معروفة تقريباً . ولكن تمثيلية منف تتناول أكثر من قوى الآله الخلاقة اللانهائية ، وهى تتناول بالمثل واجب الإنسان تجاه الإله . والإله يفكر جدياً فى الإنسان ، والإنسان ، بدوره ، يجب أن يفكر جدياً فى الآله ، وهو يجب أن يبقى على تبعيته للإله من خلال الصلاة ، لأن الصلاة كما يعرفها القاموس ، ليست مجرد طلب شىء بل هى دعوة إلى مساعدة الفرد .

وقد يكون جديراً بالإيضاح هنا أن الفلسفة الغربية ، خاصة فلسفة الثلاثمائة سنة الأخيرة . تكاد تكون قد فقدت تماماً رؤية هذه المشاركة للفطنة مع الفطنة ، التى هى أساس القدر الكبير من الفكر القديم ، حتى تلك التى تبدو لأول وهلة أنها مادية بحتة ، كديانة صياد أمريكا الشمالية ، برؤيتها ومناسكها وإن وضح هدفها الغالى .

دور الفرعون :

هناك قلة من الديانات ، وقلة من الثقافات بالمثل ، لا تردد ذكر شخصية بشرية هامة مشهورة ، كأن تكون شخصية مؤسس أو بالأحرى مفسر عقيدتها . وهذه الشخصية قد تكون قوة مجسمة للطبيعة ، مثل رع إله الشمس ، أو أسطورية تماما مثل بروميثيوس Prometheus أو شخصية تاريخية مثل المسيح أو كنفوشيوس Confucius أو شبه تاريخية مثل الملك آرثر King Arthur وبالمثل ، ربما عاشت مرة أو ربما تعرضت للتجسيد Reincarnation أو التقمص Palingenesis . مثل هذه الشخصية كانت شخصية فرعون مصر . وكان شخصه مقدساً تقديساً مزدوجاً ، فلقد كان تجسيداً لآله الشمس ومن ثم كانت شخصيته الدينية ، كما أنه كان رمزاً لمصر المتحدة ، ومن ثم كانت شخصيته السياسية . وأكثر من هذا ، لقد كان موضوع علم الأسطورة العريق فى قدمه وإحكامه ، حتى أنه فى زمن هيرودوت كانت الطقوس المتعلقة بشخصه تؤدى بالفعل فى غموض . واليوم ، بالرغم من أننا مازلنا لا نعرف إلا اليسير جداً من الديانة المصرية ، فإننا نفهم الكثير الذى حيّر الأجيال السابقة ، التى كان جهلها باللغة الهيروغليفية مصحوباً باستمرار بتقارب فيما بينها، أحسن ما يوصف به أنه تقارب « وضعى » ، أعنى أنهم كانوا يميلون إلى أن يستبعدوا على أنه خرافة جاهلة : أى شىء عجزوا عن أن يطابقوه لرأيهم مما كان متطوراً أو مستنيراً . ونحن نعلم الآن أن ما يسمى بالعقل البدائى كان معكوس العقل البسيط والصبيانى : تماماً مثل ما ندرك أن الفن البدائى كان غالباً أكثر حذقاً ومهارة . مما يطلق عليه فن البدائيين الغربيين . والهمجيون العصريون لو سئلوا بعناية ، لتبين أنهم لا يؤمنون بأن البشرية المتحضرة أكثر ذكاء منهم ، وأن كل ما فى الأمر فحسب أنهم أكثر خبثاً وفساداً وأنهم عبيد لقوى الشر . ولو فحصنا علم الأسطورة الذى كان يحيط بشخص الفرعون . لوجدنا الكثير الذى يثير حب الاستطلاع ، ولكننا لن نجد إلا القليل الذى يثير السخرية . وعلم الأساطير هذا لن يلقى فحسب ضوءاً على أصل الفكر الأخلاقى ، بل سيفسر كيف صيغت مثل هذه المناهج الميتافيزيقية الرفيعة المحكمة ، كتلك الموجودة فى تمثيلية منف .

كان أقدم آلهة مصر هو الآله حورس Horus البازى أو الآله الصقر . وعلى شاكلة كثير غيره من آلهة مصر ، كان فى الأصل معبوداً محليًّا ، وكان تقديسه مقروناً بمدينة ادفو فى مصر

العليا ، ومع ذلك ، فلم يكن فحسب آلها له دلالة إقليمية ، بل كان التجسيد المحلى لإله الشمس ذاته ، معبّرا عنه تعبيراً تصويريًّا ،كما رأينا ، أولا فى صورة بازى ، وبعد ذلك فى صورة قرص شمس مجنح . وإذا كان البازى هو الشمس ، إذن فالشمس هى أيضاً البازى ، تعبر السماء من الشرق إلى الغرب على مدار كل يوم : صورة استخدمت فيما بعد مع اختلافات عديدة ، الفرعون الميت وسفينته السماوية تحل أحياناً محل البازى . وأقدم الأساطير المصرية القديمة المعروفة لنا تدور حول نضال هائل بين حورس وعدوه سيث Seth : أو سيت Set الذى يصوَّر عادة فى صورة كلب أو آكل النمل . ولعل هذه صورة رمزية للنضال الذى يجدد كل اثنى عشرة ساعة بين الليل والنهار ، تخرج فيها « عين النهار » بصورة متكررة . ومن ثم كانت الأساطير المتأخرة التى تناولت القوى الخارقة التى كان فى استطاعة هذا الفرد الفريد أن يمنحها ، وكان تكرار ظهوره فى النقوش المصرية وما نحت على المقابر ممثلا فى صورة نمطية لعين ، « عين حورس » الشهيرة .

وعملية التحول Transformation – أو ، ربما لنكون أكثر دقة ، عملية التناسخ Transmogrification التى صار حورس بمقتضاها مقترنا بابن أوزيريس ، عملية مذهلة فى تعقبها بقدر صعوبة تفسيرها . إن كل ما نستطيع أن نقوله هو أن أوزيريس ، وكان فى الأصل ، إلها للنباتات أو ربما كان شجرة (وكانت أمه نوت Nut إلهة السماء) ، يبدو أنه قد جاء فى الوقت الملائم ليكون رمزا للخصوبة بوجه عام . وكان مقرونا بالعالم السفلى من أجل تصعيد الحياة الطبيعية من المناطق السفلى ، وكان على نفس المستوى مقروناً بالنيل نفسه ، باعتبار أنه كان فى آن واحد مصدر رخاء مصر ، وأنه على شاكلة الشمس ، كان من المعتقد أنه مواز لها فى مدارها العالمى بعبور العالم السفلى . وفى أقدم الأساطير أن أوزيريس الميت بعث للحياة عندما تلقى عين حورس ابنه . وكانت شخصية أوزيريس ، فى وقت ما ، تمثل ، لا على أنها تمتلك قوة بث الحياة فى الغير فحسب بل فى أن يدمج فى نفسه أيضاً قوة غيره من الآلهة حتى كادت مكانته تفوق رع . وأخيراً قامت مدرسة من اللاهوتيين كان هدفها فرض عبادة أوزيريس فوق كل ما عداها .

وهذا الالتزام المحكم يمكن تتبعه فى كثير من النقوش الهيروغليفية فى أهرامات سقارة وهى المعروفة باسم « نصوص الهرم Pyramid Texts » والتى ألقى عليها الضوء لأول مرة فى

سنة ١٨٨٠ بالكشف عن هرم بيبى الأول[١٠] Pepi Ist ويؤرخ لهذه النصوص من حوالى سنة ٢٦٠٠ق . م . ولكن علماء المصريات متفقون على أن ما تحتويه من مادة يرجع إلى فترة أكثر قدماً ، إذ أن ما تضمنته من كلمات وتعبيرات معينة عريقة فى قدمها حتى أننا لا نملك مفتاحا لمعناها . ومع ذلك ، فإن ما يهم دارس علم اللاهوت المصرى هو أن نصوصاً معينة قد أُلِّفت فى الأصل فى مدح إله الشمس . ومن الواضح أنه أعيدت كتابتها فيما بعد فى مدح أوزيريس . وهناك دليل دائم عن إحلال فعلى لاسم محل الآخر . وفى صور معينة ، مثلا ، نجد أوزيريس يرأس محكمة ويصدر حكماً من عرش مقامه فى السماء . وهذا دليل صريح على اغتصاب السلطة . كما أن رفع أو تأليه أوزيريس لم يكن مجرد نتيجة محاورة لاهوتية يهزم فيها من حين إلى حين اللاهوتيون الشمسيون فى هليوبوليس ، كما حدث فى حالة بتاح . وكل شىء يعنيه أوزيريس – تناسق الفصول ، حقيقة الموت ، والحياة بعد الموت ، وظائف الأرض « الطيبة » – كان الخبرة اليومية لعامة الشعب . ونتيجة لذلك ، كان أوزيريس إلههم ، إله كانت عاداته مفهومة ومكرماته كانوا يسعون فى طلبها مع بعض الأمل فى الثواب . وقد صار أوزيريس نتيجة لذلك ملك مصر الإله . سيد البلد الذى كان هو نفسه نوعا من معجزة متكررة[١١] .

وافتراض أن عبادة أوزيريس كانت تحجب وتمنع عبادة إله الشمس معا ، ربما كان فيه سوء فهم لأعمال الوعى الدينى ، خاصة فى مصر القديمة . وفى حالات من هذا اللون – ومثل هذه الحالات المماثلة يمكن مشاهدتها فى كل حضارة – ليس هناك من تحريم مطلق بل مجرد مزج للوظائف والخصائص ؛ وهو فى هذه الحالة : صبغ إله الشمس بصبغة أوزيريس Osirianization ، وصبغ أوزيريس بصبغة إله الشمس Solarization. ويضع علم اللاهوت المصطلحات الفنية ويعتقد أنه قد أقام وحدة العبادة ، ولكن ما يُعبد يُعبد فى حرية الضمير الفردى،وقلة من اللاهوتيين استطاعوا أن يصمدوا لضغط العبادة الشعبية التى أملاها العصر والتى تجاوبت مع حاجة غريزية . وفى فترة عصيبة فى التاريخ المصرى ، لما قامت محاولة

---

(١٠) جدير بالذكر أن أهرامات مصر ، باستثناء أهرامات سقارة ، لاتحوى كتابات أو نقوشاً هندسية ، أما محاولة بعض الطوائف الدينية التنبؤ بأحداث تاريخية من الأهرامات ، خاصة الهرم الأكبر أو هرم خوفو بالجيزة ، فهو قائم على قياسات الممرات والحجرات إلخ . . ، التى يستنبط منها استنباطات غير صحيحة بالمرة .

(١١) كان المصريون الشعب الوحيد الذى لا يمكن أن تنطبق عليه عبارة جان كوكتوJean Cocteauمعجزة تظل قاصرة عن أن ينظر إليها على مثل هذه الصورة.Un miracle qui dure cesse d'etre considéré comme tel.

لفرض شكل جديد ونقى لعبادة الشمس ، كان عمر التجربة قصيراً ، لا لأن الفرعون المسئول عن هذا التجريد كان مجرداً من الشخصية ، بل لأن المبدأ كان واضحاً كل الوضوح مما لا يسمح بذلك الانطلاق وذلك الغموض اللذين بموجبها يستطيع عامة الشعب ، برغم أنهم تقليديون اسما ، أن يستمروا فى عبادتهم التى يعتزون بها . ولم يكن الفلاحون المصريون الأناسى الوحيدين فى التاريخ ، ولا أكثرهم بداثية ، المرائين فى تقديسهم للشمس ، فى حين أنهم فيما بينهم يطلبون رضا إله الأرض والماء والرجولة والخصوبة والظلمة والإرهاب(١٢) .

ولو كنا نكتب عن تاريخ تفصيلى لعلم الأسطورة المصرية ، لابد وأن نحتاج فى هذه الحالة إلى سرد قصة موت أوزيريس وطفو جسده فى النيل وانتشال إيزيس Isis أخته وزوجته لجثه ، وتقطيعها إربا إربا على يد أخيه سيث (الذى سبق أن وصفنا تشويهه لحورس) وتجميع إيزيس لأشلائه وبعثه بعد ذلك للحياة . هذه القصة ، التى بقيت بعد الحضارة المصرية وصارت جزءاً من الأساطير عند الإغريق والرومان ولم تنقرض مع قيام المسيحية ، واتخذت صوراً متعددة ؛ وفى غالبيتها فى الواقع يعود أوزيريس إلى الحياة لا لشىء إلا ليتنازل عن حقوقه لصالح ابنه حورس ، وبعد تنازله يهبط إلى العالم السفلى ، ولكن العداء التقليدى بين حورس وسيث يستمر مع ذلك ؛ ولكن عندما ينادى حورس بنفسه فرعوناً يقيم سيث ، ما هو فى الواقع ، حداً قانونيًّا ضده فى محاكمة تحضرها الآلهة كلها ، وهذا التحدى ليس موجهاً ضد لقب حورس كحاكم على مصر بقدر ما هو ضد ادعائه بأنه ابن أوزيريس وهذه النقطة طريفة ، لأن الترجمات الأولى لهذه الأسطورة والأساطير مثلها تؤرخ بشكل واضح من زمن لم تكن فيه الأبوة مفهومة تمام الفهم ؛ ومن ثم فإن واحداً مثل حورس كان باستحالة أن يولد بعد وفاة أبيه بزمن طويل . وعندما أرادت الأسطورة أن تصبح أقرب إلى المنطق ، لزم الأمر بعث أوزيريس لتحقيق غرض ثانوى هو أن يتمكن من أن ينجب حورس إنجاباً طبيعيًّا ، وبعد ذلك ، لم يعد وجوده مطلوباً خارج نطاق عالمه السفلى .

إذن ، كان الفرعون هو حورس ، والفرعون الجديد هو فحسب تجسيد لحورس . ولأنه كان حورس المجسد ، كان الفرعون مصدر الحياة الوطنية والصحة ، ولما كان بقاء ورخاء مصر يعتمدان على تنظيم موسمى ، كان الفرعون مجبراً على أداء مثل هذه الطقوس التى تضمن انتظام الفيضان والمد والجزر ، بل حتى تعاقب الليل والنهار . وكما سبق أن قلنا ، لم يكن هناك قط من

(١٢) فى أقدم نصوص الهرم يعبر عن أوزيريس على أنه لايصادق إنسانا .

حاكم مثقل بالمسئوليات مثلما كان الفرعون . ولم يكن هناك قط من أناس مهتمين اهتماماً بالغاً بسعادة حاكمهم مثلما كان المصريون . ولم يكن جزعهم ينتهى بالموت : وإنما يتخذ فقط صورة جديدة . ولما كان حورس المتوفى فى حاجة إلى طعام ومعدات ووسائل انتقال بل حتى وسائل للتسلية ، لذلك بنيت الأهرامات لضمان حمايته طوال الوقت الذى يحتمل أن يظل فيه العالم قائماً . والغرض من هذه المبانى الضخمة لم تكن للإبقاء على الفرعون سجيناً بقدر ما كان القصد منها تزويده باستراحة دنيوية مؤقتة(١٣) يمكن أن تعود إليها روحه وفقاً لإرادته ، ولهذا كان كل هرم مزوداً بفتحتين للدخول والخروج إلى جانب تمثال شبيه بالشكل الطبيعى ، تسكن فيه الروح فى زيارتها للأرض ، أو على الأقل تستخدمه كوسيلة لإثبات ذاتها . ومدخل الهرم الأكبر يتجه رأسا إلى النجم القطبى ، إذ من المفروض أن يقطن الموتى هذا الجزء من السماء .

ومن نصوص الهرم نعرف قدراً كبيراً من مفهوم المصريين عن الخلود ، ويبدو فى بادئ الأمر أن الفرعون وحده يمكن أن يحيا حياة سرمدية . والواقع أن النقوش غير العادية على أهرامات معينة لا توحى فحسب أن الفرعون كان ينظر إليه على أنه جدير بالخلود عن حق ، بل إن تكرار هذه الحقيقة لابد وأن يساعد بالضرورة على أن يتيح له الرفاهية فى المستقبل .

وكما سبق أن أوضح بريستيد(١٤) ، فإن نصوص الهرم ، برغم أنها نقوش خاصة بالمقابر ، لم يرد بها ذكر كلمة الموت إلا فى صورتين من صور المتن : المرة الأولى ، لإنكار واقعية تطبيقها على الفرعون ، والمرة الثانية ، لتوكيد أنها قدر محتوم على أعدائه . وكان الفراعنة يوجه إليهم الكلام بإعجاب يكاد يكون حماسيًّا . كما فى حالة الملك بيبى :« هذا الملك بيبى لا يموت . هل تقولون إنه سيموت ؟ إنه لا يموت . هذا الملك بيبى يعيش أبداً . هذا الملك بيبى قد تخطى يوم موته . ارتفع عاليا ، أيها الملك بيبى ، أنت لن تموت » ، وما إلى ذلك . وفيما عدا مثل هذه العبارات البليغة التى نقشت فى الصخر فى رقة وإحكام لا يزالان يثيران إعجابنا ، نجد أن هناك بيانات مصورة عن الطريقة التى كان يصعد بها الفرعون إلى السماء بعد أن يتخلى عن الحياة البشرية . ومثل حورس ، قد يبدو أن هذا الصعود لم يكن متوقعاً . ألا يجدر بالفرعون ، بالأحرى ، أن يهبط إلى العالم السفلى ويصبح واحداً مع أوزوريس ؟ يجب أن يفعل ذلك وهو يفعله – على الأقل فى أقدم الأساطير المصرية . وكان مقر إله الشمس هو

---

(١٣) An earthly pied à terre.

(١٤) برستيد : فجر الضمير Breasted. The Dawn of Conscience. الفصل الخامس

هليوبوليس ، وقد اكتسب كهنة هليوبوليس ، مؤلفو تمثيلية ، منف ، نفوذاً متزايداً مع الفرعون فى منف(١٥) . وطوال عصر بناة الأهرام صار التقليد فى التعبير عن الفرعون المتوفى أنه « عُبر به واستقر به المقام على الجانب الشرقى من السماء » أعنى الجانب الذى تبزغ منه الشمس كل يوم ، ومنه أتت كل الآلهة المماثلة) برغم أنه من المسلم به أنه قد يطير أيضاً تجاه السماء أو يرتقى سلماً ذهبيًّا ، ومن ثم جاء بأحد النصوص : « أيها الرجال والآلهة ! ضعوا أذرعتكم تحت الملك بيبي ! ارفعوه واصعدوا به إلى السماء ! إلى السماء ليحتل مقعداً عظيماً بين الآلهة ! » ، والهدف الأخير من رحلته هذه ، بالرغم من قيامه بها ، كان أولا اجتماعه ، ثم بعد المحاكمة المتوقعة والحكم المتوقع ، كان اقترانه الفعلى بإله الشمس . وفى الوقت الذى كان فيه الفراعنة يتمسكون بدياناتهم الشمسية الرسمية ، كانت شهرة أوزيريس ، مع ذلك ، آخذة فى الزيادة بين شعبه حتى أثارت بإحكام المناداة بإعادة تحرير نصوص الهرم التى سبق أن أشرنا إليها . وبعد انقضاء عصر بناة الأهرام ، ولما لم يعد لأوزيريس ارتباط بالعالم السفلى ، ينتقل هو نفسه إلى السماوات ويصبح رئيس القضاة . وفى أحدث نصوص للهرم ، كما يوضح بريستيد(١٦) ، يُمثَّل أحياناً بأنه يصعد إلى السماء . وهذا إذن هو رقى مزدوج ، فلم يكن الأمر يعنى بمجرد أن أوزيريس على وشك أن يحيى غريمه القوى إله الشمس ، بل يعنى أنه قد حل محل الشخصية الصاعدة التقليدية للفرعون وقد اندمجت العقيدتان .

ولم يكن هذا اللقاء لهذين الاتجاهين من المعتقدات مجرد توافق دبره لاهوتيون ، بل كان له مغزى أكثر عمقاً . وبالرغم من أننا لا يمكننا أن نأمل فى التغلغل فى أعمق أفكار من يدعوهم هيرودوت « أكثر الناس تديناً » إلا أننا يمكننا أن نمسك عن الادعاءات المتطرفة فيما يتصل بعقلياتهم . واستنادا إلى تأثير كتب مبادئ التاريخ التى تقادم عهدها من ناحية ، وإلى الاستدلالات غير المحققة من آثار الماضى المتبقية من ناحية أخرى ، نميل إلى افتراض أن ملكية Monarchy مثل ملكية مصر لابد وأنها كانت طغيانا خطيراً وأن مبانى مثل مبانى الأهرامات لا يمكن أن تكون قد بنيت إلا على أساس نظام سخرة عارمة لا يعدله نظام آخر ، وأن الدليل فى كل من مصر ومكان آخر (مثل سومر Sumeria) على التضحية العامة بالجملة يستبعد

---

(١٥) كانت منف تبعد بمقدار خمسة وعشرين ميلاً فقط عن هليوبوليس .

(١٦) بريستيد : فجر الضمير ، الفصل الثامن .

إمكان تمتع مثل هذه المجتمعات بأقل درجة من درجات الحرية الاجتماعية . مثل هذه الافتراضات يجب أن تكون موضع دراسة وبحث .

وإذا ما اعتبرنا أن الأهرامات قد بناها عبيد ، كانوا يُرهَبون ويساقون بالقوة ، فإننا يجب أن نسائل أنفسنا أية إنجازات من هذا العمل الضخم قد تحققت بدون قسر ، سواء دبرها سيد واحد ، وكان هذا نادراً ، أو نقابة أو اتحاد ، اضطر ، بالرغم من أنه ربما شُكِّل بهدف مناهضة العسف ، ليباشر بمضى الزمن إجراء من إجراءات الضغط . وفى مثل هذه الإنجازات الجماعية لا تستخدم القوة كثيراً جدًّا فى تحقيق الهدف مباشرة ، مثلما تستخدم فى إغراء رجال بصورة فعالة على الاتحاد معا لذلك الغرض ، ومن ناحية ، هناك عمل السخرة بمشكلته مشكلة الاتحاد ، ومن ناحية أخرى هناك مجموعة الأحرار بنسبتها الحتمية من المتذمرين ؛ ولا يتحقق شيء عظيم طوعاً بصورة كلية ، وحتى العامل الذى يعمل وحده وهو منحن فوق العمل الذى كرس نفسه له بكل شغف ، ستمر عليه لحظات من الفتور وتثبيط الهمة عندما (ولنستخدم التعبير الواضح) يكون عليه أن يدفع نفسه للعمل دفعاً . ولما كان الشعب المصرى يؤمن إيماناً راسخاً بقدسية حاكمه ، ويعتقد أن وجود الفرعون ميتاً له مغزى أكبر – بل أكثر فائدة – من وجوده حيا ، فقد شيِّد بلا شك ، الأهرامات بجهد مشترك من العزيمة ، ودفعة قوية من الإخلاص .

وإذا كان صوت السوط والكرباج يسمع ممزوجاً بصوت الغناء والرق ، فى أثناء بناء الأهرامات ، فكذلك لم يكن فى الإمكان إنجاز الكاتدرائيات المسيحية العظيمة دون اللجوء إلى الكثير من الحث والسب الشفوى . وفى جيش اقترع للخدمة العسكرية لابد أن يكون هناك دائماً كثيرون ممن لا يفضلون أن يحاربوا ، ولكن مثل هذه العناصر يجب أن تجرب أبعاد الكراهية ، قبل أن تبدأ فى إطلاق الرصاص على ضباطها[١٧] .

لقد سبق أن لاحظنا أن الفرعون ، قبل اقترابه من مملكة إله الشمس ، كان مضطرا لأن يواجه حكم الآلهة . وحتى قبل ذلك ، فى أساطير حورس ، لم تكن فكرة المحاكمة وإصدار الحكم أقل وضوحاً فى إدراكها . وإسناد مثل هذا القدر العظيم من المسئولية إلى أقوى رجل فى

---

(١٧) من الطريف أن نذكر أننا لانعرف إلا اليسير عن بناة الأهرامات الثلاثة : خوفو ، وخفرع ، ومنقرع ، وعلى أساس العبارة القائلة بأنه « سعيد البلد الذى لا تاريخ له » يمكننا أن نتجاسر ونقول إننا نعتقد بأن حكمهم لم يكن حكماً خطيراً ، ولعل هذا يبدو فى أنه كان حائلاً دون قيام أية ثورات اجتماعية عنيفة أو أية قلاقل .

البلاد قد يبدو أمراً غير عادى مادمنا نجد اتجاهاً على طول التاريخ الذى أعقب ذلك عند القوى وصاحب الطول إلى تجنب تحمل هذا العبء ، وبالرغم من أن هناك حكاماً مثل ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وآشوكا Ashoka والقديس لويس Saint Louis الذين أخذوا على عاتقهم القيام بأعباء وظائفهم فى جدية تامة ، فهم يعدون استثناء من القاعدة ، فالمسئولية قد أسندت إلى من هم أقل فى المستوى الاجتماعى . وكون الالتزام الأخلاقى كان معترفا به مبكراً فى قمة المجتمع المصرى ، فقد يكون له دخل فى استقرار وبقاء ذلك المجتمع : لأنه لوكانت النظرية التى نادى بها توينبى Toynbee وهى « التحدى والرد عليه Challenge & Response » فى نظر التاريخ صحيحة ، فإن المجتمع البالغ التزمت فى سلوكه سيكون ، بصورة واضحة كل الوضوح ، فى وضع يرد فيه ردًّا فعالاً على أى تحد . وما سيجده دارس الفكر طريفا بصورة خاصة هو العملية التى يسهل تعقبها والتى مرت بها المسئولية الأخلاقية حتى صارت نوعاً من الديموقراطية فصار الفرد العادى على إلمام بالتدريج بالمسئولية الشخصية لأول مرة فى التاريخ .

كيف حدثت هذه اليقظة الأخلاقية ؟ ليست لدينا تفسيرات كافية بعد ، ولكنناسنفترض بعض تفسيرات فى الوقت المناسب . إننا لا نستطيع القول بصورة صحيحة بأن التفكير البشرى يوضح عملية تطور من تأمل معين إلى تأمل تجريدى ، ولهذ فلا يستتبع أن المفاهيم الأخلاقية بكونها مفاهيم تجريدية ، لابد أن ارتفعت إلى مستوى معين فى التطوير الاجتماعى . وأقدم فكر مسجل لايمكن أن يكون قد تطور دون أن يكون قد أدرك التجريدات إدراكاً تامًّا ، كما أن حقيقة أن المصريين كانوا يميلون أيضاً إلى التعبير عن فكرهم فى صور معينة لاتنهض دليلاً على أن عقيدتهم فى الفكر التجريدى كانت مزعزعة . ونحن على صواب فى الاعتقاد من وجهة النظر السيكولوجية ، بأن قدرة واحدة تضع يدها فى يد قدرة أخرى . وأكثر من هذا ، لقدكان فى استطاعتنا أن نتعقب مايمكن اعتباره أول مفهوم أخلاق تجريدى طورته الإنسانية ، أعنى المفهوم المصرى الدال على « الاستقامة » أو « العدالة » . وقد نكون واثقين من شىء واحد : عندما ظهر هذا المفهوم أول ما ظهر كان قد شهد بالفعل تاريخاً طويلاً ليس فحسب على أنه رأى غامض أو انطباع غامض ، بل ، ولنستخدم مصطلح ديفيد هيوم David Hume ، على أنه فكرة أصيلة .

مفهوم العدل :

كانت الكلمة المستخدمة عند المصريين للدلالة على العدل والخير والصلاح أو الحقيقة (ولعلها كانت تدل على ، أو تتضمن ، كل الأفكار الأربعة ، مثل « صورة الخير » عند أفلاطون) هى كلمة ماعت Maat ولم ترد كلمة « ماعت » فيما بقى لنا من «تمثيلية منفَ » وليس هناك من غموض حول ذلك بصورة خاصة . وواضح أن المفهوم أقدم من الجدل الحكيم اللاهوتى لكهنة هيلوبوليس ، لأن الفكر الأخلاق لابد وأنه سبق الفكر اللاهوتى بأمد طويل . ويمكن الحكم على ماكان معتقدا فى « ماعت » من بعض القدم والاحترام ، من حقيقة أن العدالة ، كما كانت مدركة ، كانت تعد بمثابة ابنة إله الشمس نفسه ، ومن ثم كان إشعاعها من أعلى وهو تشابه آخر مع الصورة الأفلاطونية للخير ، التى قورنت بالشمس على اعتبار أن قوة الأخيرة تثير وتدعم الحياة معاً . وهذا كاف ليوضح أن « ماعت » أيًّا كانت مظاهرها الفردية ، لم تكن مجرد صفة فحسب ، لافتة تلصق على الشىء الجدير بالمدح . لقد كانت الروح التى وراء الكون ، أو التى تنفذ فيه ، كانت : « الطريق » بالمعنى الذى كثيراً مايستخدم فى الفكر الشرقى . وعند العبرانيين صارت «ماعت» الحكمة أو عند المسيحيين صارت « المحبة » – ومرة أخرى ، ليس مجرد حبك لجارك أو لوطنك بل الحب Amore الذى عبّر عنه دانتى Dante بأنه « الحب الذى يحرك الشمس وغيرها من النجوم » .

فى زمن سابق لبداية الأسرة ١٨ نقل كتّاب مصريون معينون من مخطوط قديم عملاً أعطوا له عنوان « تعاليم بتاح حوتب The Instructions of Ptah-hotep » ومن المحتمل جدًّا أن كان تأليفه حوالى سنة ٢٨٨٠ ق . م . ، بقدر ما يمكن أن توحى لنا معلوماتنا الراهنة ، ويشكل هذا العمل نوعاً من الوثيقة السياسية ، وكان مؤلفها حاكماً لمنف ورئيساً للوزراء فى عهد ملك من ملوك الأسرة الخامسة ، كان قد قرر ، بعد اعتزاله منصبه أن يجمع ملخصاً للوصايا التى لا تتناول الحكم الصائب فحسب ، بل أيضاً – وهذا مايهمنا أكثر فى هذه الآونة – الحياة الصالحة . والمؤلف فى مقدمته لكتابه ، يطلب السماح من الملك أن يسند إلى ابنه المنصب الذى لم يعد فى استطاعته أن يباشر مسئولياته . وواضح بالنسبة لرئيس الوزراء الجديد أن الوصايا مقصودة أصلاً . وفى توجيه الكلام إلى الملك ، يعلن بتاح حوتب عن عزمه الثابت على أن « يقول كلمات من ينصتون إلى نصيحة الرجال الذين عركتهم السنون ،

وممن سموا الآلهة مرة ».ومن خلال الكتاب نلق نظرة سريعة على فكر تقليدى ، يعد بالفعل عريقاً فى القدم ، وفى حاجة إلى عناية فى الحفاظ عليه ، إلى جانب تلميحات عن فترة من الزمن كانت فيها الآلهة والناس فى تآلف بل فى صداقة حميمة ، كما نرى أيضاً فى الفصول الأولى من « سفر التكوين Genesis » . لقد كانت الحكمة ذاتها أو ماحفظ منها ، تحمل تشابهاً واضحاً لما بلّغه بولونيوس Polonius لابنه ، أو لما أطلع بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin قراء « سيرته الذاتية Autobiography » عليه .

وهو كتاب يجمع فى آن واحد فكراً ثاقباً ورأياً سديداً وأمراً مقرراً ودنيويًّا ، وهذا الاهتمام الأساسى بالأمور الدنيوية ، وهذا الذكاء السطحى أو (بالمعنى الحرفى) هذه السطحية تكشف عن شىء من طبيعة حضارة العصر . وأيًّا كان فسادها ، وأيًّا كان أساسها فى العبودية ، فلابد أن هذه الحضارة قد أظهرت قدراً طيباً من الاستقرار والنظام ، وإلا لكانت وصايا الوزير غير ملائمة ، بل لا معنى لها . وفى وصايا مثل « احذر أن تصنع الشر بكلماتك . . لا تتجاوز الحقيقة ، ولا تكرر ما قاله أى إنسان أميراً كان أم فلاحاً ، عندما يفتح لك قلبه » أو « الصمت أكثر فائدة لك من كثرة الكلام » أو « خذ فى اعتبارك أنه ربما عارضك خبير يتحدث فى المجلس : فن الحماقة الكلام فى كل لون من ألوان العمل »،نجد أنفسنا نتبصر فى عالم لايفتقر إلى الأخلاق ولا إلى الفضائل الاجتماعية ، مجتمع احتاج فيه فن إدخال البهجة وكسب النفوذ إلى حضارة هامة ، كاحتياجه اليوم ، مجتمع فيه للكلمات والأفعال أهميتها على حد سواء ، إن لم يكونا متماثلين أحياناً . والرذائل الاجتماعية لاتختلف كثيراً من عصر إلى عصر.

وفيما عدا أنها تعد أول عبارات أخلاقية من نوعها بقيت لنا برغم أنها لم تتداول بكل تأكيد ، فإن حكم « بتاح – حوتب » لاتظهر أى عمق خاص . إن انطباعنا عنها هو تحضرها ، وهى ليست بثمرة خبرة شخص واحد بل أجيال من الموظفين الإداريين ، بل ربما نقلت بحذافيرها من كتاب عادى . ومن الطريف جدا أن نذكر اليوم أن أقدم حكم أخلاقية مدونة كان من المتوقع أن تكون مبتذلة عن أن تكون على ما هى عليه من الإغراق فى العمق : لأنه لاشىء يوحى إيحاءا قويا بأن الحضارة أقدم بكثير مما نؤمن به عادة . وبرغم ذلك فإن « التعاليم » ليست خلوا من لحظات لها سموها ، حتى إذا كان مثل هذا السمو مجرد نموذج لبلاغة العصر التقليدية ، تأمل هذه العبارة التالية التى تعد دون غيرها لها قوتها الخاصة : « عظيمة هى (ماعت) ناموسها يبقى ، وهى لم تنبذ منذ زمن صانعها ».وباختصار ، فإن

الأساس ، أصل هذه الوصايا بالفضيلة ، قوة احتمال طوال العصور ، قيمة دائمة ، قوة تعمل لا في النفس الفردية فحسب بل في المجتمع ذاته . وهذه القوة ،اذن ، برغم تجسدها في الفرعون[١٨] ، تدرك على أنها مفهوم تجريدى ، ولعل مثل هذا المفهوم ، أول مفهوم تطور في الفكر الإنسانى .

أما عن أن حكم « بتاح – حوتب » قد صارت جزءاً من الحكمة التقليدية في مصر ، فيتضح ذلك من حقيقة أنها كان يعمل بها حوالى أربعمائة سنة بعد ذلك في وثيقة هي بالمثل جديرة بالاعتبار . وهذه الوثيقة ، وهي ورقة بردى محفوظة الآن في متحف لينجراد ، معروفة باسم « تعليمات إلى ميريكرع » Instructions addressed to Merikere .

مَنْ كان ميريكرع ؟ نحن للأسف لانعلم عنه إلا اليسير جدا . لقد كان ابناً لملك من ملوك هيراقليوبوليس Heracleopolis ، وهي مدينة تقع على بُعد حوالى خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب من منف . وقد تمكن أحد هؤلاء الملوك ، بعد هزيمته للحاكم في منف ، من أن يتخذ لنفسه لقب فرعون . وأعقبت ذلك فترة من الفوضى العارمة . وانقسمت البلاد إلى محافظات متطاحنة ، وتصدعت المملكة القديمة ، وكانت النتيجة انهيار ذلك الاتحاد السياسى لمصر الذى ظل قائماً بالفعل لألف سنة . ويبدو أن ملك هيراقليوبوليس الذى كتب هذه الوثيقة الفريدة كان أقدر فرد أو على الأقل أحكم فرد في أسرته ، لأن هذه الأسرة لم يكن لها مطلب آخر لتتميز به ، وبرغم حقيقة أن اغتصاب أسرته قد فعل الكثير في هدم تقاليد المملكة القديمة ، فهو يظهر تبجيلا عميقاً لحكمة الماضى . وطبقا لما هو متبع ، يبدأ الملك حديثه بالإشارة إلى (ماعت) Maat : تأتى الحقيقة (إلى الرجل الحكيم) الذى أُحسنت تربيته على نهج سلوك أجداده . سر على نهج آبائك وأجدادك . . . لأن كلماتهم باقية مسطورة » – إشارة إلى حكمة « بتاح – حوتب » التى تؤكدها بضعة أسطر بعد ذلك . ويعقب ذلك نصيحة سياسية . بالغة الصرامة ، أولاً عن موضوع السياسة الخارجية ثم بعد ذلك عن الشئون الداخلية . ويتساءل الملك كيف أن نظاماً عادلاً للحكومة يمكن الحفاظ عليه ؟ وهو ينبرى للإجابة عن سؤاله الذى سأله بتوكيد الرخاء المادى لمن أعمالهم هي إقامة العدل . إذ « من هو غنى في بيته ، لايظهر محاباة ، لأنه هو صاحب الملك ، وليس بحاجة إلى شيء ، ولكن

---

(١٨) قارن ذلك بما جاء في نصوص الهرم : « يهرع الملك أونيس للاستقامة (ماعت) لعله يفلح في أن يأخذها معه » الخ الخ .

الشخص الفقير (فى وظيفته) لايتحدث وفق ما تمليه عليه استقامته (ماعت) ، إذ أن « من يقول « لو كان لى » لن يكون منصفاً ، وسيظهر محاباة لمن يستطيع مكافأته[١٩] » . ولكن برغم أن الملك يعلن قائلاً : « عظِّم نبلاءك حتى يمكنهم أن ينفذوا قوانينك » إلا أنه كان حريصاً على أن يضيف : « زد من الأجيال الجديدة من أتباعك ممن لهم أملاك ، ممن يمتلكون أراضى وأغناماً ومواشى . لا ترفع قدر ابن شخصية مهمة (أعنى ابن عائلة عريقة) على شخص متواضع ، ولكن اختر لنفسك رجلاً ، بناء على ما يتمتع به من قدرة » .

مثل هذا العلاج لمشكلات الإدارة قد يوحى بأن ميركرع كان يعمل على التركيز على الوسيلة دون النتيجة ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إذ عندما تتكشف هذه المواعظ يتضح لنا أن الملك كان حريصاً على أن يلقن درساً هامًّا ، فهو يقول : « سينصلح حال الحاكم ذى العقلية التى لا تعرف المحاباة ، لأن الداخل (داخل القصر) هو الذى ينقل الاحترام إلى خارجه » وهو على هذا يلزم نفسه بما يدعوها بريستيد ، وهو محق فى تسميته « ملاحظة من أنبل الملاحظات فى فكر أخلاقى مصرى قديم » : « إن خير مايلقى استحساناً هو فضيلة الشخص العادى عن جموحه الذى يثير الظلم » وينبغى أن نتذكر أن قوله الذى يُعدّ أحسن مذكِّر لحكمة لاحقة ، قد كتب منذ أكثر من ألفى سنة قبل وضع المزامير العبرية ، أعنى فترة أطول من الفترة التى تفصل بيننا وبين ميلاد المسيح .

لقد سبق إيضاح خلود الفرعون ، كما سبق توكيد مسئوليته الأخلاقية ، ولكن ادعاء خلوده ليس تلقائيًّا ، فأفعاله فى هذا العالم ينبغى على ذلك أن توزن بميزان . وبينما لايعتبر « بتاح - حوتب » هذه الحقيقة جديرة بالاهتمام ، نجد أن ملك هيراقليوبوليس يوليها الاهتمام الملائم . ولاشك أن هذا التغيير فى الموقف يعبر عن تطور الوعى الأخلاقى . يقول الملك : « لاتشغل بالك بطول الأيام ، لأنهم (القضاة) يرون العمر كأنه ساعة . يُبعث المرء بعد موته ، وتوضع أعمال بجانبه كالجبال ، لأن السرمدية هى التى تنتظر الإنسان هناك ، والأحمق من يحتقرها . » لقد مرت فكرة الخلود بمعنى تقدمى عميق فى الفكر المصرى ، حتى كانت تعتبر

---

(١٩) هذه الفكرة كان يقاسمه فيها كثير غيره ، قارن ذلك مثلاً بما جاء بنقش على مقبرة نبيل يدعى منتيوسر Mentuwoser ، الذى عاش فى عهد سيزوستريس .Sesostris ، أوسنوسرت Senusert I الأول ٢١٩٢ - ٢١٥٧ ق . م . « كنت واحداً ممن استمع إلى قضايا وحكمت فيها طبقاً للوقائع دون أن أظهر محابات لمن بيده مكافأتى ، لأننى كنت غنياً وفى بحبوحة من العيش » .

بمثابة مكافأة لأى شخص ذى نزعة مستقيمة . « إن من يأتى (إلى العالم الآخر) دون أن يقترف إثماً ، سيحيا كأنه إله ويستمر فى عيشه حرًّا كسادة الأبدية . » .

ربما كان الإدراك التدريجى بأن « ماعت » وحدها يمكن أن تؤكد الحياة الخالدة للفرد هو الذى أدى إلى النفور العام من قيم ما أطلقنا عليه هنا اسم عصر بناة الأهرام ، وواضح أن فراعنة تلك الفترة كانوا يؤمنون بالقوى عن إيمانهم بـ « ماعت » . لقد شيدوا وجهزوا مقابرهم على ذلك المنوال الذى يضمنون به لأنفسهم على الأقل إقامة طبيعية دائمة ، كما لو كانوا يهدفون أن يحرموا الزمن نفسه من الانتصار على التغيير. لقد رأيناهم أيضاً قد دفعوا بخدمهم إلى تغطية جدران هذه المقابر بنوع من العزائم الفعلية اللازمة ، لقد كان الفراعنة يسعون إلى أن يأخذوا مملكة السماء بعاصفة من التعزيم والبلاغة . وفى اعتقادنا اليوم أن هناك شيئاً يبعث على التهكم بصورة غير معقولة فى حقيقة أن الغرض من كل هذا البناء المحكم الذى استخدم فيه الصخر والأزميل والمسك والصبغة والعنبر هو الشيء الوحيد الذى فشل فى حالات عديدة فى الإبقاء عليه ، أعنى الجسد الملكى نفسه ، إذ لم تبق سوى الأوانى والطعام ولوازم الزينة والأثاث – وإلى جانب ذلك النصوص .

تدهور المذهب المادى :

إن الفكرة الشائعة عن أن المصريين كانوا أناساً قضوا كل وقتهم يبنون أهرامات ويحنطون موتاهم تخفى حقيقة هامة هى أنهم ، خلال قرون ، بل آلاف السنين من التاريخ المصرى ، كانوا أناساً ينظرون إلى الأهرامات العظيمة على أنها آثار قديمة ، وعلى أنها بقايا لحضارة أفكارها وقيمها قد انقضى عهدها . صحيح أن ملوك مصر استمروا يدفنون فى مراسيم محكمة حتى وقت الفتح المقدونى (٣٣٣ ق . م) إلا أن مايطلق عليه اسم عصر بناة الأهرام Pyramid Age انتهى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق .م . وما لبثت المساحة الضخمة التى تغطيها الأهرامات حوالى (٦٠ ميلاً طولاً) أن صارت لاشيء سوى بقايا لبناء من رمل منثور . وعندما أطل قيصر Caesar ونابليون Napoleon على هذه الآثار فكرا فى مجد وكبرياء الإنسان الزائلين ، وكذلك فعل المصريون ، ولو أن المشهد بالنسبة لهم كان أكثر إيلاماً ، لأنه كان تاريخهم هم أنفسهم الذى كان يرقد أطلالاً أمامهم . ولا عجب إذا كان مثل هذا التأمل يمكن أن يوحى بشعر بالغ العمق والجلال . والنموذج على ذلك هو الأغنية الشهيرة « أغنية عازف

القيثار[٢٠] » التى كان يُتغنى بها فى الجنائز وفى الحفلات كتذكرة بالموت Memento Mori وقد أُلفت هذه الأغنية فى وقت ما خلال عهد الدولة القديمة (٢٢٠٠ ق.م ؟) ولكن هذه الأغنية ليست معروفة لنا بصورتها الكاملة ، لقد بقى منها جزءان ، أحدهما على ورقة بردى والآخر على جدران مقبرة فى طيبة .[٢١]

كم هو موفق هذا الأمير الصالح !
كان لابد للمصير العظيم أن يحل ،
وتمر الأجيال ،
بينما تبقى أجيال غيرها ،
منذ زمن الأجداد ،
آلهة الماضى
الراقدين فى أهرامانهم ،
رحل نبلاء وبالمثل رحل أشخاص أجلاء ،
ودفنوا فى هذه الأهرامات . .

تطلع إلى الأهرامات
لقد تعرت جدرانها ،
ولم يعد لأماكنها وجود ،
كأن لم تكن لها قائمة قط

لا يأتى أحد من هناك
عله يخبرنا كيف رحلوا ،
عله يخبرنا عن مصائرهم ،
حتى يثلج صدورنا ،
إلى أن نرحل نحن أيضاً
إلى المكان الذى ولوا إليه ،

(٢٠) "Song of the Harp Player"

(٢١) هذه اللوحة محفوظة الآن فى متحف ليدن .

شجع قلبك على أن ينساه
أدخل البهجة على نفسك لتحقيق رغبتك ،
مادمت على قيد الحياة
ضمخ رأسك بالمر
وارتد فوق جسدك ملابس من الكتان الناعم
موشاة تنم على ترف مذهل
وهى الأشياء الحقيقية التى يفعلها الآلهة .

ومع ذلك زد من مباهجك
و (لا) تدع قلبك تفتر همته
حقق رغبتك وما ترى فيه خيرك
شكِّل أمورك على الأرض
وفق ما يأمرك به قلبك أنت
حتى يأتيك ذلك اليوم الذى تلقى فيه حتفك
عندما لايسمع القلب الصامت نحيبك
ولايحضر من فى القبر أحزانك .
احتفل باليوم البهيج
ولكن لا تجهد فيه نفسك
تذكر ! لايأخذ إنسان مايملكه معه ،
نعم ، ولا يعود ثانية من رحل إلى هناك .

ولا يستطيع الجزء المقتطف الذى اقتبس هنا ، أن ينقل الجلال القاتم حتى لتلك الأجزاء التى بقيت ، ولكن القارئ الذى لديه إحساس بجمال الصورة وعمق المشاعر سيسترعى انتباهه شيئان : الأول ، الفكرة الأساسية للقصيدة التى أبقت عليها الترجمة رغم البعد الشاسع بين اللغتين المترجم منها وإليها ، والثانى ، أن الفكرة ذاتها (برغم أنها ليست العنصر الأول فى أية قصيدة) تسبق فكرة بعض الأشعار العظيمة فى العالم . أما عن الادعاء بأن أصل هذه

القصيدة يمكن أن يقارن أحياناً بالحوار الفردى العظيم لـ« هاملت » Hamlet الذى كان موضوعه شائعاً إلى حد كبير، مثلما تكاد تقارن الترجمة أحياناً بفقرة مشهورة فى أشعيا Isaiah ، فلعله لاتوجد مبالغة فى هذا الأمر.

فى الترجمة السابقة ، وهى ترجمة لورقة البردى ، نجد تعبيراً عن تشاؤم جد عميق حتى أنه لاشىء سوى النسيان يمكن أن يتغلب عليه وهذا التعبير هو : « شجع قلبك على أن ينساه » وفى النص الباقى على جدار فى مقبرة طيبة ، وهى مقبرة « نفرحوتب Neferhotep » ، وكان كاهناً من كهنة آمون ، نجد نغمة أكثر إيجابية تتخلله ، ففيه وصايا للأحياء بالإضافة إلى « أن يحققوا رغباتهم كاملة » بأن

يعطوا الخبز لمن لاحقل له
وبذا ستكسبون سمعة طيبة
لمستقبلكم إلى الأبد.

موضحاً قيمة المثل الصالح للذرية ولكن دون السعى إلى إدراك للعقوبات القصوى للسلوك الأخلاقى . إن ما عندنا هنا ، فى الواقع ، هو تنوع للنزعة الإنسانية Humanism ، مثلما يحدث عادة فى أعقاب تدهور لعقيدة دينية تقليدية : نزعة إنسانية ، كانت فى الوقت الذى تشفع فيه للمتعة الحسية من النوع المهذب تعرب عن تبجيل ملائم للسلوك التقليدى ، خاصة فيما يتصل « بالسمعة الطيبة » التى يكتسبها المرء . وإذا أردنا أن نبحث عن تفكير متأخر مواز لهذا الوضع من التفكير ، وهو شىء متكرر ، يمكن أن نشير إلى ذلك التفكير الذى كانت تنادى به شخصيات فى القرن التاسع عشر أمثال ت . هـ . هكسلى T.H. Huxley وماثيو آرنولد Matthew Arnold وايمرسون Emerson . فمثلاً هكسلى ، فى الوقت الذى ينكر فيه العقيدة الدينية التقليدية ، يتمسك فى حزم بالعقيدة الأخلاقية التقليدية ، ربما بصورة خاصة فيما يتصل بالسمعة الطيبة التى خلعتها على من التزموا بها . مثل هذا الوضع ربما لا يوحى بأعمق وجهة نظر للأخلاق ، ولكنه يوحى فعلا بصورة جوهرية بوجهة نظر اجتماعية للأخلاق ، لأن « السمعة الطيبة » لاتعنى شيئاً إن لم تكن « سمعة طيبة » بين الناس . ويميل الكتّاب الأخلاقيون إلى اعتبار « الوعى الاجتماعى » شيئاً قد تطور حديثاً فقط ، مع إلغاء الرق

وزوال عوامل الضعف عند طوائف دينية معينة . من هذه الأجزاء من الأدب المصرى نرى أن الوعى الاجتماعى فى قدمه كقدم التاريخ . وماهو متناقض بالنسبة للوعى الاجتماعى لم يكن فى ظهوره المبكر مايبعث على الدهشة بقدر حقيقة بقائه بين أناس غرائزهم مناهضة للنظام الاجتماعى بصورة أقوى .

فى ضوء ماسبق ، ما الذى يمكن قوله لإقامة تقدم سلوكى أو أخلاق ؟ كانت هناك وجهة نظر متمسك بها بشدة حتى عهد قريب جدًا ، هى أنه جاء أولاً قلة من علماء الأخلاق ، وبعد ذلك بفضل نفوذهم إلى حد كبير ، قام مجتمع أخلاق أو شبه أخلاق . والقول بأن وجهة النظر هذه كانت كلها خاطئة قد يكون أمراً غير معقول ، فكلنا يعلم أن مثل هذا الشىء كرأى عام يمكن غرسه وأنه لاشىء يؤثر على الرأى العام أكثر من بلاغة رجل ذى بصيرة (فى أفعاله أو كلماته) ، ولكن كلما وجهنا اهتماماً أكثر لتنظيم المجتمع البدائى ، وكلما توسعنا فى دراسة الديانة والثقافة المعاصرة صار أكثر وضوحاً أن المعتقدات الاجتماعية والمحرمات Taboos والعادات هى بالمثل أشياء يثور عليها الزعيم الفردى على أنها أشياء هو مسئول عنها شخصيًّا . وكلتا النظريتين تتمسكان برأيهما . والمجتمع فى حاجة إلى أن يدفع به إلى مسئولية اجتماعية أكبر ، وإلى بذل جهود أكبر من أجل تعاون متبادل ، كما أنه فى حاجة أيضاً إلى أن يتخلص من سبات جماعى ومن لا مبالاة عامة . وفى مجتمع مثل المجتمع المصرى ، بتسلسله الوظيفى الدقيق إلى أقصى درجة ، وبنظامه الاجتماعى الصارم القائم على الاحتياج المادى ، وبعلم أسطورته المعقد ومعتقداته الدينية ، لم تكن الحقيقة الجديرة بالاعتبار هى أن الانسان يجب أن يكون له وعى اجتماعى بل يجب أن يكون له وعى فردى . إن ما كان يدعو إليه العالم الفرنسى الاجتماعى ديركهايم Durkheim بـ « الضغط » الاجتماعى"Social "Pression كان يحس به المصرى العادى فى كل حالة . إنها التجربة الداخلية ، ومايحدث فى النفس ، الفرد فى حرب مع نفسه ، وهى التى يبحث عنها الفلاسفة فى بحثهم عن أصول نظرة المفهوم الأخلاق الأصيل . مثل هذه التجربة كانت تجربة أيوب Job . وكانت هناك تجربة أخرى ، تجربة بطل البهاجافاد – جيتا Bhagavad-Gita [٢٢] هل نجد شيئاً ما جديراً بالمقارنة بمثل هذه المسرحيات للوعى ، على الأقل بالنسبة للموضوع ، فى الأدب المصرى القديم ؟

نجد بكل تأكيد . نجده ، وأكثر من هذا ، نجد أنه يرجع إلى ما قبل أيوب والأمير كريشنا

(٢٢) انظر الفصل الرابع فى هذا الكتاب .

بألف وخمسمائة سنة بالتمام والكمال . والعمل الذى نعنيه هو مابقى على ورقة بردى Krishna محفوظة الآن فى متحف برلين يرجع تاريخها إلى وقت مبكر إلى سنة ٢٠٠٠ ق . م . ، ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن عملاً مدوناً على ورقة بردى ربما كان فى حاجة لأن يكون قِدمه قدما ثابتا قبل أن تضفى عليه مثل هذه الصورة الدائمة . إنه الأدب العصرى وحده ، هو الذى يكاد يحظى بالطبع الفورى والتوزيع الفورى الكامل ، والدراسات القديمة تكاد تكون كلها مخطوطة . والنص الذى نشير إليه ليس له عنوان ، ولكن بريستيد ، ولعله أخذ فى اعتباره تعريف أفلاطون للفلسفة على أنها « حوار النفس مع ذاتها » ، يسمى هذا الجزء من الفلسفة « الوجودية » "Existentialist" Philosophy : « حوار عدو البشر مع ذات نفسه »[٢٣] وهو فى الحقيقة وصف ملائم . وعدو البشر المقصود يبدو أنه لم يكن كذلك منذ ولادته ، وما حوّل مزاجه إلا سلسلة من النكبات التى حلت به . ونحن نجهل الطبيعة الحقيقية لهذه النكبات ، لأن الجزء الخاص بهذا البيان من ورقة البردى قد فقد . ونحن نستطيع فقط أن نستدل على أنه ، على شاكلة « أيوب » قد عانى من حادث ألم به ومرض وفقد للأصدقاء والأملاك . وأخيراً فقده للشهرة ، حتى بدا له أنه لم يبق شىء أمامه إلا أن « يلعن الآله ويموت » . وعند النقطة التى يبدأ فيها جديًّا فى التفكير فى القضاء على حياته تستأنف ورقة البردى القصة ، ولكن فى أسلوب روائى ، فيصُوِّر الشخص التعس ونفسه يواجه أحدهما الآخر . وتبدأ النفس فى حوارها مع الشخص ، فتعلق أن الموت كارثة ، ولكن الموت فى ظروف من البؤس والكراهية العامة كارثة لا تعدلها كارثة . لماذا هذا الأمر كذلك ؟ لأن المرء إذا جرد من الوسائل وهجره أصدقاؤه لن يجد له مقبرة ولا من يحزن عليه – مصير كان يندر لأى مصرى فى هذه الحقبة أن يحتمل عناء التفكير فيه .

وحتى هذا ، فإن أغنى جنازة هى مثار سخرية ، كما تبرهن على ذلك المقابر المهجورة للفراعنة والنبلاء « فَتَحَتْ نفسى فمها وأجابت على ماقلته : إذا تذكرت الدفن فهو حزن وذرف للدموع ، هو أخذ الشخص من داره وإلقاؤه بعيداً على مرتفع[٢٤] . لن تصعد إلى أعلى لعلك ترى الشمس . إن من يبنون بالجرانيت الأحمر ويشيدون الضريح فى الهرم ، وإن من يرقدون فى هذا البناء الجميل ممن وهبوا الجمال ، ومن صاروا كالآلهة : مناضد ذبائحهم خاوية ، كمناضد

---

(٢٣) The Dialogue of a Misanthrope with his Own Self.

(٢٤) المصطبة الجنائزية (بريستيد) .

هؤلاء الكادحين الذين يموتون على الجسور دون أن يبقى منهم أحد » ، وبمعنى آخر ، إذا كان الموت الطبيعى للفرعون فى حقارته كحقارة موت عبد مجهول الاسم ساعد فى بناء الهرم الملكى ، لما تعجل أى امرئ حكيم حتفه بمحض إرادته . وبأسلوب سديد ، إذن يختم هذا الجزء من المحاورة بعبارة تذكرنا بـ « أغنية عازف القيثار » « انعم باليوم السعيد وانس الهموم . » .

ولكى نقيّم كلا من أهمية وأصالة هذه الوثيقة ، علينا أن « نستعيد إلى الأذهان » أربعة آلاف سنة من الإنجاز الأدبى والفلسفى ، وهذا يتضمن جهداً ذهنياً وفيراً ، وحتى إذا تم هذا ، فإن « عدو البشر » ، برغم ثاقب فكره وتجرده من العواطف ، لم يرتق إلى تبصر روحى أعمق من مؤلف « أغنية عازف القيثار » ، ولكن لا تنتهى المخطوطة هنا ، بل تستمر فى صورة أكثر أصالة ، فالمقدمة النثرية تعقبها أربع قصائد كل منها تنقل مرحلة أو صورة للتقدم الروحى للمؤلف نحو التنور . ومع الاشمئزاز من الذات بالأحرى ، عن الإشفاق بالذات ، تسهب القصيدة الأولى فى موضوع فقدان الشهرة وضياع السمعة الطيبة فى أسلوب « عازف القيثار » ، وتستخدم صورة السمك الجيفة كقياس للتشبيه ، لأن المصرى قد يقارن بصورة طبيعية ، السمعة السيئة بالرائحة الكريهة « لطرحة سمك عند اشتداد حرارة السماء » كما نعبر اليوم عن أن اسما من الأسماء « يزكم أنوف الناس » ، وتتركز القصيدة الثانية على نفور « عدو البشر » من الحياة من وجهة نظر أخرى ، فهى تتساءل : أى سلوك للإنسان يمكن أن يوثق به ؟ فحتى الإخوة قد يتضح أنهم زائفون فى حين أن « أصدقاء اليوم ليست صداقتهم عن حب . » الشر يتزايد ، ولكن الأشرار لا يحاسبون « يموت الشخص المهذب ويهيم الوقح على وجهه فى كل مكان » . وأسوأ من ذلك أن السلوك الشرير لا يثير الكثير من الاشمئزاز بقدر مايثيره اللهو البرىء . والحياة الاجتماعية مهزلة لأنه « ليس هناك من شخص مستقيم يمكن اللجوء إليه ». وبصورة مطردة ، ولكن مع نوع من التوكيد الإصرارى الذى يذكرنا بالمزامير ، يقول السطر الأول من كل بيت شعر من هذه القصيدة « إلى من أتحدث اليوم ؟ » تماما مثلما قد يسأل صاحب مذهب عصرى أو فنان عصرى : « أى جمهور سأتحدث إليه ؟ من سيصغى إلى رسالتى ؟ » .

وفى القصيدتين الأخيرتين ، اللتين تعدان أحسن القصائد بلا نزاع ، تأمل فى الموت أولاً فى هدوء على أنه الراحة النهائية من الهموم وثانياً فى ثقة على اعتبار أنه مصدر العدل المقدس ،

ومن ثم تزول كآبة الجزء الأول من المخطوطة ، والوصية بنسيان الموت تفسح المجال للنصيحة المنادية بتقبل ماهو محتوم على أمل أنه قد يؤدى إلى شىء أكثر من مجرد تحلل طبيعى . ومن هاتين القصيدتين تعد الثالثة بلا شك أكثر جمالاً ، كما سيوضح ذلك ذكر بضعة أسطر منها :

الموت أمامى اليوم
كإبلال مريض من مرضه
كالتريض فى حديقة بعد مرض .
الموت أمامى اليوم .
كرائحة المر .
كالجلوس تحت شراع فى يوم عاصف . . .

فى حين أنه فى مناسبة من المناسبات النادرة فى أى أدب يثير التأمل فى الموت صوراً عكس هذه الصور تنم عن الفزع والوبال أو الكرب . وفى تناقض مع الأفكار التقليدية لهذا العصر والعصور المتأخرة ، نجد أن اقتراب الموت يقارن بإبلال الشخص من المرض ، كما شبه الولوج إلى العالم المجهول بالخروج من غرفة المرض المغلقة النوافذ إلى الحديقة وما إلى ذلك . هذه النزعة إلى إيقاظ الإيمان ، التى نعتها الشعر مساوية على الأقل لما جاء فى « أغنية عازف القيثار » تهيئ لانتقال ملائم إلى القصيدة الأخيرة التى لا تهتم كثيراً بحقيقة الموت بقدر اهتمامها بالموتى أنفسهم . فى هذه الصورة النهائية للحج الروحى لعدو البشر ، ينظر إلى أولئك الخالدين « هناك » كما لو كانوا قضاة ومُوقِّعى العقاب على الأشرار بعد الموت . وإذا لم تكن هناك عدالة على الأرض ، إذن فلا أقل من وجود عدالة فى السماء ، وليس الموت هو النهاية ، ولا هو دخول فى طى النسيان . هو بالأحرى البداية ، هو الشروع فى أسلوب حياة ينال فيه الصالح والشرير جزاءهما . بمعنى آخر ، لقد بلغنا بالفعل مرحلة يعتبر فيها كل الناس مسئولين عن أفعالهم ، قد صار الوعى فيها شعبياً ديمقراطيا ، ويصبح فيها « حوار الإنسان مع نفسه » موضوعاً مميزاً للأدب ، كما لايوضح التركيز على الخبرة الشخصية عدم وجود « وعى اجتماعى » ، بل هو فحسب صورة من صور الوعى الاجتماعى واتجاه لأفكار الإنسان « إلى الداخل » بسبب فساد المجتمع .

وبنفس الأسلوب كان « أيوب » شخصية شعبية ، شخصاً ذا جاه وشهرة ، وهو ، بعد أن فقد كل شيء قادر على جعل الحياة جديرة بالعيش فيها ، اضطر إلى أن يراجع نفسه فى معنى الحياة والمعاناة . ومما هو جدير بالملاحظة بالنسبة لتجربة « عدو البشر المصرى » ليس فى كونه سابقاً فحسب لشخصية « أيوب » بل فى أنه يشكل جزءاً من الوعى الاجتماعى للشعب المصرى . ولعله يكفى أن نلاحظ أن عدو البشر الذى لاشك أنه توفى « طاعناً فى السن » مثل « أيوب » ، يبدو أنه بلغ حالة من الإيمان على حساب نفسه تماماً . وعلى غير شاكلة أيوب ، لم يسع ولم يتمكن من لقاء الإله . لم يكن هناك اجتماع عاصف ، كما أنه فى نهاية المحاكمات ، لم يُنعم عليه بأكثر مما كان عنده فى بداية عهده ، بممتلكات مادية كان الإيمان فى نظره ، حرفيًّا ، « جوهراً للأشياء التى يأمل فى الحصول عليها ودليلاً للأشياء غير المرئية » ، لأننا يجب أن نتذكر أن مصرى هذه الحقبة بكل إيمانه بما هو خارق للطبيعة وفى الآلهة الحارسة ، لم يكن لديه مفهوم لإلهام دينى واضح لكل البشر. لم يكن للإيمان شيء يعتمد عليه إلا نفسه .

حماية « ماعت » :

أما عن أن الوثائق الأخرى المتبقية من هذا العصر قد تميط اللثام عن نزعة مماثلة لإظهار الحقيقة ، فلا يمكن أن يكون مصادفة . ودارس الأدب الحديث ، فى تصميمه على تعقب خط معين من الفكر أو اتجاه من الشعور ، يفلح باختيار حكيم فى العثور على كل ما يحتاج إليه من أدلة ، ولكن الاختيار يجب أن يكون صارماً بالضرورة وقد يكون جائرًا أحياناً أخرى ، ومن هنا كان التناقض فى كل جيل فيما يتصل بأحكام وقيم الماضى القريب . . وفى هذا القسم من دراستنا ، الوضع مختلف تمام الاختلاف ، فلا يحتاج الأمر إلى اختيار جائر ، والأدب المصرى فى جملته ، بالرغم من أنه أكبر مما هو متوقع عادة ، مرن ، وعلى نمط واحد ، وغالبيته الآن من السهل الاطلاع عليه . لسنا فى حاجة إلى أن نحتال عليه للبرهنة على نظرياتنا ، وقد نتقبله على ماهو عليه . ومن كافة الكتابات ابتداء من « تمثيلية منف The Memphite Drama » إلى عصر « كتاب الموتى The Book of the Dead » يتبلور تعميق متجدد للوعى الأخلاقى والروحى ، ولما كان جل هذه الأجزاء من الأدب قد أبقى عليها رجال البلاط كما أبقى عليها الكهنة ، فقد أدخل عليها بلا شك جانب كبير من التنقيح الدقيق . وحتى لو كان الأمر كذلك ، فإن مادة الكتابة التى بقيت ما زالت موضع اعتبار ،

وربما كان فى هذا الكثير مما ينهض دليلاً على زيادة التبصر الروحى من جانب كل من المؤلفين والمحررين : وكل مانستطيع أن نقوله عن مادتها هو أنها جمعت لأول مرة فى التاريخ .

وهناك مثلان غاية فى الطرافة لهذه الزيادة فى التبصر فى طبيعة الأخلاق يرجع تاريخها على وجه التقريب إلى عهد « عدو البشر The Misanthrope » أولها ، تأملات كاهن من كهنة هليوبوليس يدعى « خخبيرى سونب Khekheperre-Soneb ». هذا النص نقله كاتب من الأسرة ١٨ على لوحة محفوظة الآن بالمتحف البريطانى . وفى رأى هذا المتأمل الثاقب الفكر فى إخوانه من البشر أن المعايير الأخلاقية القديمة قد انهارت ، وعلى غير شاكلة « عدو البشر » يبدو أنه لايحمل أية ضغينة شخصية ، بل لايحمل فحسب إلا همه الخاص لإهمال « ماعت » وحكمة الأجداد ، وهو يكتب قائلاً : « إننى لأتأمل فيما قد حدث (أى أن تشهيره ليس تشهيراً خياليًّا) والنكبات تحدث اليوم ، وغداً لن تمضى المحن ، وكل الناس صامتون حيالها برغم أن البلاد جميعها فى اضطراب كبير . . . إن دائى طويل وثقيل . والفقير ليس له من القوة ماينقذ به نفسه ممن يفوقونه قوة » وهكذا يسير فى نفس الاتجاه متناولاً عدة نواح معبراً عن حقيقة اجتماعية أكثر مرارة وقتامة لأنها بدت أنها لم تكن لها سابقة . إن قيام وسقوط إمبراطوريات وحضارات هو موضوع يوجه إليه مؤرخونا المحدثون اهتمامهم الزائد ، حتى صرنا ننظر إلى تحليل حضارتنا الخاصة بنا على أنه مجرد مسألة زمن ، ونحن على اقتناع تام بضعفها القطرى . لقد كان « خخبيرى – سونب » ورفاقه يواجهون مايعد حتى الآن أمراً لايمكن تصديقه : تفكك النظام الاجتماعى الذى ينظر إليه على أنه قد فرضه الإله الحى الذى لايموت ، ودعمه خليفته الحى الفرعون ، وقوة « ماعت » . وواضح أن عبارة « إننى لأتأمل فيما قد حدث » تشير إلى التأمل فيما لم يحدث قط من قبل .

والمثل الثانى هو مجموعة أكثر أصالة ، إنه قصة « القروى الفصيح »(٢٥) وهى قطعة أدبية طويلة حفظت لنا على لفيفة من ورق البردى محفوظة الآن فى متحف برلين . تقدم هذه القصة لأول نظرة ، إلى جانب الناحية الأخلاقية التى تكشف عنها ، أعظم نقد هدام للطبقات العليا ، وبصورة خاصة طبقة الموظفين ، لأن القصة تحكى كيف أن قرويا فقيراً ، كان يقود بغاله يوماً ما بالقرب من أملاك رئيس خدم الملك ، فخدعه موظف ذو دهاء وشجعه على أن ينتهك حرمة أملاك رئيس خدم الملك ويسمح لماشيته أن تقضم قمح السيد ، فتم الاستيلاء على

(٢٥) The Eloquent Peasant.

مايملكه القروى من ماشية ومتاع ، كما ألقى القبض على القروى ، ولكنه يصمم على أن يطرح قضيته على رئيس الخدم نفسه ، ويحقق طلبه هذا فى سلسلة من تسعة أحاديث طويلة كل واحد منها أبلغ وأجرأ من سابقه ، وفيها يذكِّر كبار الموظفين ، حتى الملك ، بواجباتهم . وبالنسبة للأحاديث الأولى ، إما أن رئيس الخدم لم يلق لها أذناً مصغية ، أو أنه ، وقد استثير غضبه لوقاحة صاحب الالتماس ، يجيب بإصدار أوامره بضربه ضرباً مبرحاً ، ولكن مثل هذه العقوبة لم تكن إلا ملهماً للقروى لإظهار المزيد من البلاغة . وفى مخاطبته رئيس الخدم فى عبارات حماسية ، يصل بحواره الذروة بهذه الكلمات :

لا تستخف نفسك ، لأنك ثقيل الوزن ،
لا تتكلم كلاماً زوراً ، لأنك أنت الميزان(٢٦)
لا تنحرف ، لأنك تمثل الاستقامة .

ولكى يعبر عن وجهة نظره ، يؤكد حقيقة أن العدالة لا تقوم على الميل أو الهوى الإنسانى ، بل لكونها أزلية تبقى ، برغم وجود الإهمال والتحدى والفساد . وهو يعلن قائلاً إن « العدالة (ماعت) هى كل ماهو أزلى : تهبط مع من ينتهج سبيلها إلى قبره ».وبعد هذه السلسلة من الدروس التى وجهها له أحط رعاياه ، يصبح رئيس الخدم مقتنعاً بأن العدالة ، مع ذلك ، قد أسئ استعمالها ، ولهذا يلقى القبض على الموظف المجرم ويرد للقروى مايخصه .

وسواء كان أو لم يكن المقصود من هذه القصة الدعاية أصلاً ، فهى تلقى ضوءاً حيويًّا على الأفكار الشائعة فى العصر. إن مايثير اهتمامنا بصورة أكثر قوة هى حقيقة أنها ، برغم أن موضوعها الرئيسى هو العدالة ، لم يرد بها على الإطلاق أبسط اقتراح بأن النظام الاجتماعى يجب أن يقلب رأساً على عقب وأن الموظفين الجائرين يجب أن يستبدل بهم موظفون عادلون ، ولكن القرويين لا يأملون أن يكونوا أكثر من قرويين : هذا هو الافتراض الأساسى لقصة ليست خلوا من الحصافة وتكاد تقترب أحياناً من حد الفكاهة ، ثانياً ، وربما نتيجة لهذا التقبل للنظام الاجتماعى الذى لا يتغير ، ليس هناك من سخف فطرى فى قروى يقوم إما بتذكير سادته بالتزاماتهم الاجتماعية أو فى أن يكون على درجة من التعليم تسمح له أن يفعل ذلك . وفى بلد

(٢٦) كان الميزان فى مصر دائماً رمزاً للعدالة . والعدالة لاتزال تصور عادة على أنها تحمل الميزان .

استقرت فيه المسئولية على الحاكم ، لقرون عديدة ، لابد وإن كانت هناك قوة لها اعتبارها فى مجادلات القروى . وخلال التاريخ المتأخر ، هناك الكثير من التشهير بالأغنياء ذوى النفوذ فقط ، على أساس غناهم وسلطانهم : والحفاظ على قصة القروى الفصيح توحى بأنها كانت نقداً أقل من أن تكون أدباً هداماً عن أن تكون تذكيراً لما يتوقعه ملك متنور من موظفيه . نحن لدينا هنا وثيقة من الوثائق الاجتماعية القليلة فيها واجبات السادة تجاه خدمهم تعتبر كأنها المصدر الأول للاستقرار الاجتماعى . وكل حضارة غيرها تقريباً ، وقد افترضت واجبات الخدم تجاه سادتهم ، انطلقت لإيضاح ما فيها من نزعة إنسانية **Humanitarianism** بإعطاء امتيازات للفئات الدنيا ، وكان الامتياز الوحيد الذى التمس القروى الفصيح أن يمنح له هو إنصافه على اعتبار أنه شخص يؤدى واجبه فى موقع عمله . وهو يوضح الفارق بين ماقد يتنازل عنه نتيجة لنفوذ وبين ماينبغى أن يمنح له نتيجة لالتزام . نحن نتنازل عما ينبغى التنازل عنه . ولكننا نُمنح مايجب أن يُمنح لنا .

وقد أدرك من كانوا سبباً فى الحفاظ على قصة القروى الفصيح ونسخها ، أدركوا بوضوح قصور الحكمة المطروحة فى « تعليمات إلى ميريكرع » ، وهى أن الموظف سيسعى إلى إقرار الحق بشرط أن يتقاضى عن ذلك أجراً سخيًّا . وإذا كان الضمان الوحيد للإجراء العادل ، كما يبدو الآن ، هو وجود حاكم عادل ، فإن مسألة كيف نجد حاكما عادلاً مسألة مسلم بأنه لاحل لها نهائيًّا . إنها مسألة فرصة . وفضلاً عن هذا ، فإنه مع تدهور النظام القديم وإهمال الحكمة التقليدية ، كان هناك خطر متزايد من أنه حتى أحسن الحكام قصداً أو أحسن الموظفين قصداً قد يفسد . لقد كانت الحكمة التقليدية حصناً واقياً دون أعظم أساليب سوء استعمال السلطة ، ولكن لو زال مثل هذا الضمان أو ضعف ، فما الذى يمكن أن يحل محله ؟

إن من حاولوا الإجابة عن هذا السؤال ، أو من شاءت الظروف الإبقاء لنا على إجاباتهم كانوا مختلفين كل الاختلاف فى نظرتهم عمن كنا نبحث أفكارهم . وكان هناك سبب وجيه حتماً لاختلاف آرائهم : فـ (بتاح – حوتب) ومؤلفو « تعليمات إلى ميريكرع » و « أغنية عازف القيثار » و« وثيقة عدو البشر » إما أنهم كانوا معلقين دنيويين فى نظرتهم للحياة أو متأملين رواقيين فى نظرتهم للموت . وهم لما وجدوا أن البشرية شديدة الميل إلى الحق ، تطلعوا إلى عالم مابعد الموت لإصلاح ميزان الخير والشر ، وبعد تدهور الدولة القديمة ، نجد ، مع ذلك ، مفكرين معينين ممن واقعيتهم – ، برغم تطرفها – ، تراودها مع ذلك ، الأمل فى قيام

نظام اجتماعى جديد : وليس نظاماً يتحصل عليه بإقصاء الطبقات الحاكمة أو إسناد السلطة إلى عناصر اجتماعية جديدة ولكنه نظام يقيمه حاكم يهديه الآله ليعيد لـ « ماعت » سلطانها ، وهذا أكثر من « المثالية الاجتماعية Social idealism » بالمعنى العصرى ، بل هو كما سبق أن أشار إليه بريستيد ، أول إشارة التاريخ إلى المذهب المسيحى Messianism وفى الوقت الذى ظهر فيه أعظم الأنبياء فى فلسطين وما جاورها – ولعل مرد عظمتهم إلى استمرار رسالتهم التى لايوجد مايوازيها – لم يعدم العالم القديم رسلاً من طراز آخر ، أقوالهم نعتبرها أقل تأثيراً لا لشىء فحسب إلا لعدم قيام دليل ما على تحقيق مانادوا به .

وعندما نقرأ الأقوال القائمة للحكيم المصرى المدعو « ايبور Ipuwer » ، نتساءل مدهوشين : كم عدد الأشخاص غيره ممن لهم مثل هذا التبصر قد نسى واقعة التسجيل : لأن الإنسان الذى يجهر بشعور يشاركه فيه الكثيرون فى نفس الجيل لابد أن يفعل ذلك بلغة عبرت بالفعل عن الكثير فى نفس المضمون العام . ويمكنك أن تبتدع تفكيراً ولكن لا يمكنك أن تبتدع اللغة التى تعبر بها عنه . لقد كان « ايبور » أكثر من ناقد ثاقب الفكر ، لمجتمعه ، وكان مهتماً ، كاهتمام كل فيلسوف عظيم ، بالظروف الإنسانية ، وكانت وقتذاك مثلما هو حالها اليوم ، قل أن تبعث على التفاؤل . وفيما سمى « بنصائحه Admonitions » يشير إلى الشرور الاجتماعية لعصره ، لافى عبارات تنم على الدعاية السياسية بل فى عبارات تشير إلى زوال الوهم الفلسفى . وهو فى الواقع أول فيلسوف يقرن تدهور الحضارة بما أسماه جلبرت موراى Gilbert Murray : « انهيار الأعصاب Failure of nerve » أعنى تدهور عزيمة الإيمان ، بإثارة الشك فيما يتصل بخيرية بل واقعية الآلهة .

ولقد رثى الحكماء من قبل « ايبور » تدهور المستويات ، وأعربوا عن غمهم للتدهور الذى لحق بثقافتهم . « وايبور » أعمق سبرا لأنه يدرك بوضوح تام أنه لو انتشرت مثل هذه الشكوك مرة ، ولو تغلغلت فى النفس مرة ، لصارت طبيعة الحياة نفسها كريهة ، ربما لا الحياة ذاتها بل بالأحرى تلك الخاصية من خصائص الحياة التى هى على الأقل عرضة للشرح والتفسير ، أعنى التكرار الباطل والمضنى لوظائفها .وقد يضج فى موضع ويقول . « ياليت ينتهى أجل الناس حتى لا يكون هناك حمل ولا ميلاد ! » وهذه فى الواقع أول مذكرة مسجلة لموضوع يتناول الفكر الشرقى إلى يومنا هذا ، ولكن تعقبها فترة ذات جمال تذكارى غريب ، مؤلَّفة على شاكلة بقية « نصائح » إيبور ، على وزن صار مألوفاً فيما بعد فى المزامير العبرانية وتوحى بفكرة

مجيء المنقذ أو الغازى الخيِّر الذى تشير إليه كل الآداب القديمة تقريباً ، كما سنرى ؛ لأن الناس لم يكتشفوا بعد أى علم يمكن على أساسه أن يغذوا أوهامهم ، أو أى فن يمكن أن يتسلوا به . إنه « هو » – وهو ما يمكن أن يشير فقط إلى مثل هذا المنقذ كما سبق أن أشرنا – « الذى يحيل اللهب برداً وسلاماً . ويقال إنه راعي البشر جميعهم لا يُكنُّ فى قلبه شرًّا ما ، وعندما تكون رعاياه قلة يمضى اليوم فى جمع شملها لأن قلوبها محمومة » . وهو يستمر على هذه الصورة فى سطور تذكرنا بـ « أشعيا Isaiah » و « حزقيال Ezekiel » النبيين اللذين يعطى لهما الموضوع أكبر أهمية ، بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة .

ومؤرخون معينون حينما تواجههم مثل هذه الأقوال يسارعون إلى تفسير مادى لما تضمنته من نبوءات . ويبدو ، مهما يحدث أن هؤلاء الحكماء القدامى يجب أن يصوروا على أنهم لا يعنون مايقولون . ولا يستبعد بالمرة أن إيبور ، على شاكلة الكاهن نيفرروهو Neferrohu [٢٧] ، كان يقصد شخصاً حقيقيًّا ، ولعلمه بأن أناس عصره قد اعتادوا على أن « يحرثوا الأرض حاملين دروعاً » وكانت تفزعهم فكرة الحرب الأهلية (التى يقول عنها بثاقب فكره « إنهم لا يدفعون عنها ضرائب ») ، فلعل ايبور قد وضع كل آماله فى حاكم أجنبى ، ربما كان من الجنوب ، اختار أن يكون ، أو ربما دُفع لأن يكون ، المتحدث باسمه ، أو ربما ابتدع شخصية خيالية على أمل أنها قد تصبح فيما بعد شخصية مجسدة . والموقف مع ذلك مسيحى ، لأننا نعلم أن الناس أكثر التزاماً بالأفكار المسيحية، واليهود كانوا دائماً وما زالوا حتى يومنا هذا منقسمين بالنسبة للصورة الصحيحة التى يجب أن يتخذها مُخلِّصهم .

تدهور :

كانت « ماعت » فى نظر القروى الفصيح تملكاً روحيًّا يستطيع الوصول إليه كل الناس . وحقيقة أن هذه القصة قد لقيت تأييداً « رسميًّا » ، إذ لا يمكننا أن نشك فى ذلك ، توضح أن التطور الروحى الملحوظ فى الحكماء كان يصاحبه تنور شعبى نسبى . وإذا كان القروى أكثر من

(٢٧) كتب « نيفر روهو » فى كلمات واقعية مماثلة ككلمات خخبيرى – سونب » ، ولكن المنقذ الذى يتطلع إليه يكاد يكون بكل تأكيد هوا منمحات الأول Amenemhet I مؤسس الأسرة ١٢ حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . ، ولكن الأخير لم يحقق ماكان متوقعاً أن يقوم به . وقد خلف وصية لابنه سيزوستريس جاء فيها : « لقد أعطيت الشحاذين وربيت اليتامى واعترفت بمن كان حقير القدر مثل اعتراف بمن كان عظيم القدر : ولكن من أطعمته من طعامى خرج عن طاعتى وتمرد علىّ ، ومن أنعمتُ عليه بأرض أثار مخاوف منه » .

بليغ عادى ، فلقد كان فى مظاهر أخرى نمطاً لطبقته ولكن شعبيته «ماعت» هذه لها مخاطرها المصاحبة لها : أولاً ، لأن علم اللاهوت «الشمسى» الممجَّد قد صار مختلطاً بصورة متزايدة بعقيدة أوزيريس ، العقيدة الطبيعية التى يؤمن بها الناس ، وثانياً ، لأن وصول رعايا الفرعون إلى السماء ، وكان فى الأصل حقًّا موقوفاً على الملك ، قد أضفى على الكهنة سلطات عظيمة بشكل متزايد . وقد تمتعت طائفة الكهنة فى مصر — إذ كانت بالفعل طائفة — تمتعت بشهرة ضخمة منذ أقدم العصور .

ويتحدث هيرودوت ، الذى عرف معظم ماعرفه عن عقلية المصريين من الكهنة الذين سألهم ، يتحدث حديثاً طيباً عن هذه الحكومة الدينية وطبقاً لما ذكره ، كان الكهنة فى الغالب يجمعون بين المهارة الفائقة واستقامة الأخلاق . و «الأمور الغامضة» التى كانوا يهيمنون عليها ، كانت فى معنى من المعانى غامضة غموض فيضان نهر النيل ، وعملية فى معنى آخر كعملية التحكم فى هذا الفيضان عن طريق الرى ، وتوقيت حصاد المحاصيل . وقد تكون ديانة سامية ميتافيزيقية بدون أية علاقة مباشرة بالحياة العملية ، قد تكون غير مفهومة لإنسان مصرى كان مضطرًّا فى مواسم معينة من السنة إلى أن يعمل أكثر مما هو مقدر له ، من أجل عقيدته . مثل هذه القوى والمسئوليات كانت بطبيعة الحال مصدر إغراء كبير . ويمكن أن نذهب إلى أن السبب الرئيسى للفساد بين الكهنة لم يكن راجعاً بدرجة كبيرة إلى البطالة والكسل والتهاون — الأسس الطبيعية المولدة للتدهور — بقدر ما كان مرده إلى حد كبير إلى ضغط العمل الشديد . وقد تحتل الطقوس الدقيقة المرتبطة بمقبرة ملكية ، حياة مجموعة من الكهنة لمدة قرون . وكانت المعابد فى حاجة إلى التزويد بموظفين وإلى من يتولى صيانتها ، كما أن الأملاك التى تجمعت إما بالشراء أو عن طريق الهبات المقدمة من الورعين من الناس ، كان لابد من أن تكون لها إدارة تديرها . وأما المحفوظات ، وكانت وقتها أثمن وأجل مما هى عليه اليوم ، فكانت فى حاجة إلى حفظ دقيق وإلى تدوين من وقت لآخر . وكان وجود المدارس الخاصة بالكتبة والوعاظ شرطاً لاستمرار المهنة . وفوق كل شىء ، كانت احتياجات الناس وطلباتهم ومعتقداتهم الخرافية لابد من الإصغاء إليها بصبر وفى خداع أحياناً . وإذا كان لابد من إرضاء الناس ، فلابد من أن يقدم لهم ما كانوا على استعداد للثقة به سواء اتخذ صورة سحر أو رقية أو حجاباً مقدساً يحوى كتابة غامضة . ولو كان سعيهم فى طلب المساعدة فى التخلص من الشياطين فى هذا العالم والعالم الآخر ، فأكثر رد فعل معقول لم يكن فى السخرية من سذاجتهم

بل فى تزويدهم بالتعاويذ اللازمة بأسعار مناسبة .

وقد لايكون صحيحاً بالمرة القول بأن مثل هذه الأساليب كانت سائدة بين الشعب وحده ، إذ أن سذاجة من مثل هذا اللون توجد بين كافة طبقات المؤمنين من البشر Homo Credens.وخلال مايطلق عليها الدولة الوسطى (٢٠٦٥ – ١٥٨٠ ق .م .) اعتاد موظفون من ذوى النفوذ والثراء أن يجهزوا توابيتهم بأن تغطى بالداخل بنصوص ونقوش ، يوضح معظمها تعاويذ وصيغاً سحرية (٢٨) . ودراسة هذه النقوش دراسة دقيقة ، توضح أنها استخدمت لا لما تحويه من مضامين عقلية ، وهى قليلة فى غالبية الأحوال ، بل لأنها لون من الحماية الفعلية للجسد من الشياطين والأرواح.ونتيجة لذلك ، يلاحظ أن هناك قدراً كبيراً من التكرار والخطأ فى تأليفها ، وكثير من الفقرات تركت ناقصة ، توحى بأن الكتبة الجنائزيين كانوا يقومون بسرعة وآلية فى زخرفة داخل الصندوق الخشبى كله بالكتابة .

وبالإضافة إلى هذه الكليشيهات السحرية – التى كانت،كما أوضح العالم الأثرى سيث Sethe ، مقصوداً منها بوضوح أن « تقرأ نفسها » – كان هناك عدد ضخم من لفائف أوراق البردى ذات خصائص مماثلة (٢٩) ، وكان من الممكن شراؤها من الكهنة وإيداعها المقابر . وهذه النصوص تشكل ماصار معروفاً باسم « كتاب الموتى » الذى جمع رسميًا خلال فترة العصر البطلمى قرابة سنة ٤٠٠ ق .م . وكتاب الموتى كانت تطلق عليه أحياناً تسمية خاطئة على أنه « الكتاب المقدس للمصريين The Bible of the Egyptians » فى حين أن الجانب الأكبر منه بحث فى الجن والشياطين Demonology من نوع يثير الخوف بصورة خاصة . ونجد فيه تعاويذ رسمية غريبة كتلك المستعملة مع « الثعابين العنيدة » و « التماسيح النافرة » وغيرها من الحيوانات المفترسة . كما نجدبها أيضاً عديداً من وصفات من نوع سلبى ، وما نعتبره (فى نظرنا) مضحكاً ، مثل « لعدم السير والرأس أسفل » ، « ليتجنب المرء فقدان فمه أو قلبه » ، لـ « منع تحول ماء الشرب إلى لهب » إلخ . . . والنوع الأخير من التعاويذ واضح أنه يمد الكهنة المنزعجين بإمكانيات لاحدود لها لوصفات سحرية ، لأنه إذا كان كل من الميت أو أقران الشخص الميت ، يريدون أن يضعوا مؤونة لمواجهة أبعد الاحتمالات فضلاً

(٢٨) جمعت هذه النقوش ونشرت تحت عنوان نصوص التوابيت Coffin Texts وكان بريستيد ممن تولوا جمعها بصورة خاصة .

(٢٩) اكتشف من هذه اللفائف مايقرب من ٢٠٠٠ لفافة .

عن أكثرها وضوحاً ، فلقد كان هناك التزام ببيع أية وصفة تقريباً أيًّا كانت .

وهناك سلسلة من الأفعال المكتوبة عن الندم الشخصى ، أقل سخرية وإن كانت بالمثل سلبية فى روحها ، وقد وُجدت ليس فقط بين نصوص التوابيت فى «كتاب الموتى» بل أيضاً كنقوش على جدران المقابر ، وهذه التى يطلق عليها «اعترافات سلبية» وتتخذ أحياناً صورة مداهنة وتملق ، كما لو كانت النفس تأمل فى الوئام مع القاضى أوزيريس بنوع من التسوية خارج نطاق المحكمة . وفى أحيان أخرى ، تكشف عن عمق للفهم الأخلاقى الذى لايتخلص فحسب من وجهة النظر القائلة بأن معنى الإثم هو شىء يتلقنه المرء عن حكامه ، بل يوضح أن الحياة الأزلية بمثابة جائزة يمكن الفوز بها عن طريق السلوك القويم فى هذه الدنيا . وعلى مقبرة «أمينى Ameni» حاكم بنى حسن نقشت العبارة النمطية التالية : «ليست هناك ابنة مواطن قد اغتصبتها ولا أرملة قد عذبتها ولا قروى انتزعت ملكيته» وتحوى نصوص المقابر بالمثل ، عبارات تلو عبارات من النوع التالى : «السلام عليك أيها الإله العظيم ، ياإله الحق والعدالة ! لقد جئتُ لأقف بين يديك ، يامولاى . . . إننى لم أظلم أحداً من الناس . ولم أضطهد الفقير . . . ولم أقصر فى شىء ، ولم أقترف مايغضب الآلهة ، ولم أتسبب فى أن يلقى العبد سوء معاملة من سيده . لم أتسبب فى أن يتضور أى إنسان جوعاً ، ولا فى بكاء أحد ، ولم أقتل أى إنسان» وما إلى ذلك فى إثبات لانهائى بالبراءة ، جمع فى العبارة المتكررة «أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر» ، هذا فى الوقت الذى نستعين فيه بأناس غيرنا فى كتابة إعلانات وفاتنا .

أخناتون : «المنشق العظيم» :

فى الإشارة إلى عبارة أوزيريس ، ذكرنا أنه قد فرضت بعد ذلك ديانة جديدة ومتطهرة ، فرضها حاكم مصرى ، له شخصية أكثر تميزاً عن أية شخصية عادية ، وكان قصر مدة حكم هذا الفرعون ، الذى اعتلى العرش تحت اسم أمنحتب الرابع Amenhotep IV فى سنة ١٣٨٠ ق . م . قد جذب اهتماماً أكبر من جانب المؤرخين والأشخاص العاديين عن أى ملك مصرى آخر ، يستثنى من ذلك ، لأسباب أكثرها جاء مصادفة ، صهره توت عنخ آمون Tutankhamen وهو بحق جدير بهذا الاهتمام ، لأن أمنحوتب لم يكن مجرد واحد من أعظم الشخصيات الجديرة بالاعتبار التى عاشت على ظهر الأرض ، بل كان ، كما أوضح المؤرخون ، أول «فرد Individual» حقيقى عرفه التاريخ (وقد أوقف البعض هذا اللقب من

قبل على إيمحوتب Imhotep ، الطبيب والمهندس المعارى للملك زوسر Zoser ، الذى عاش حوالى سنة ٣١٥٠ ق. م. ، ولكن ايمحوتب ، الذى ورد ذكره عرضاً فى « أغنية عازف القيثار » كان شخصية أكثر غموضاً من أن توصف بهذه الميزة ، والواقع أنه عُبد فيما بعد على أنه إله المعرفة ، مثل « فرد » آخر صارت شخصيته غامضة من جراء تبجيلها ، وهى شخصية فيثاغوراس Pythagoras) والكثير مما نعرفه عن « الملك الضال » كما نُعت فيما بعد ، مستمد من الأعمال الفنية والأدبية المقترنة بحكمه ، وكل هذا محل اعتبار لتجديداتها فى الشكل والأسلوب والمضمون. أما مازال أقل تفسيراً وشرحاً حتى أنه يصل إلى درجة الغموض فهو لماذا كان لابد لهذه الثورة ، التى لم تقتصر على الفن بكل تأكيد ، أن تقوم بالمرة.

عندما أقام فراعنة الإمبراطورية الحديثة (١٥٨٠ ق.م. وما بعدها) عاصمة مصر فى طيبة ، بدأ كهنة الإله آمون Amon، إله طيبة المماثل للإله رع Re ، بدءوا فى ثبات ، فى اكتساب النفوذ فى البلاد. وربما لأن امنحوتب الرابع كان يعتبر مثل هذا النفوذ بمثابة تهديد لسلطته السياسية أو لأنه كان يكره فساد عقيدة آمون ، يبدو أنه لم يضيع أية فرصة سانحة لإظهار عدائه للكهنة التقليديين. لقد كانت مثل هذه السياسة المعارضة لأقوى طائفة دينية فى البلاد يحف بها خطر عظيم ، لقد كان رئيس كهنة آمون رئيساً لكافة الكهنة المصريين ، وكان مسموحاً له ، بجمع ثروة تفوق ثروة الفرعون نفسه ، وأيضاً بطلب المعونة المادية من الخارج لو لزم الأمر. وقد حدث فى الواقع ، فى نهاية الأسرة ١٩ (حوالى ١٢٠٠ ق.م.) أن اغتصب بالفعل عرش البلاد رئيس كهنة آمون. مثل هذه الاعتبارات لم تعق الفرعون الشاب. وفى ثقة بالذات مذهلة صمم على برنامج للعمل ، بدلاً من أن يعمل فحسب على تطهير أو إصلاح عقيدة آمون ، أوقف كافة الكهنة عن العمل. لقد أعلن أن آمون إله زائف ، وقرر أن عبادته إلحاد ، وبرغم أن الدوافع التى كانت تحرك المصلح الشاب كانت لاتزال غامضة ، فإنه يمكننا أن نشير إلى تفسيرات مختلفة لسلوكه هذا غير العادى : فى المقام الأول ، لم يكن هجومه على آمون فحسب هجوماً هداماً ، وكان فى إلغائه لصورة من صور العبادة ، على استعداد لإبدال صورة أخرى بها ، وكانت العبادة التى اختارها هى عبادة آتون Aton، إله الشمس ، التى أعلن أنه اعتنق عبادتها نتيجة إلهام شخصى ، أما إلى أى مدى كان هذا صحيحاً فهذا مالا نستطيع أن نحققه. وهو إذا لم يكن قد خبر بالفعل مثل هذا الإلهام ، إلا أن سلوكه يوحى بأنه كان يؤمن هو نفسه بأنه فعل ذلك فى مناسبات متكررة طوال حياته ، وفى مثل هذه

الحالات ، كما أوضح « ويليام جيمس William James » فى كتابه « تنوع الخبرة الدينية[٣٠] » يختفى التميز بين ادعاء المرء بأنه قد أحس بشىء ما وبين أدائه له بالفعل : فقد يكون الادعاء الصورة التى اتخذها الشعور » ولكن هل هذا هو كل مانستطيع أن نقوله ؟ ربما ساعدت ظروف حياة الملك فى إلقاء ضوء على هذا الشكل القاطع لتحوله . والآن ، لما كنا فى هذا الكتاب أمام حياة ، نقوم لأول مرة بدراستها ، فلابد لنا من أن نولى هذا الأمر اهتماماً خاصًا .

من التسجيلات المصورة الحية التى بقيت من هذه الفترة ، نلاحظ أن الشاب المعتنق لعبادة آتون كان معتاداً أن يظهر على الملأ فى صحبة زوجته وأمه . مثل هذا الإجراء ، وكان جديداً فى عصره ، له معنى آخر فيما يتصل بشخصية هاتين المرأتين ، إذ كان من الواضح أنهما سيدتان جديرتان بالاعتبار ، خاصة زوجته ، إذ كانت نفرتيتى Nefertete زوجته ، تختلف عن معظم الزوجات الملكيات الأخريات فى أنها كانت أجنبية « أسيوية » الموطن . ومنذ أقدم العصور ، جرت العادة على أن يتزوج الفرعون من أخته ، تماماً مثلما تزوج أوزيريس من إيزيس . وفى اللغة المصرية القديمة كان فى الإمكان أيضاً استعمال كلمتى « أخ وأخت » للدلالة على وجود علاقة حب ، ولكن أخناتون Ikhnaton كان أول من انشق على هذا التقليد القديم ، إذ كانت زوجته سورية ، وبرغم أن سوريا كانت جزءاً من الإمبراطورية المصرية وقتذاك ، إلا أنها كانت ولا تزال حتى اليوم بلد العقائد الغامضة الغريبة . ولقد كان السوريون هم أيضاً يعبدون الشمس ، ولم يكن أمراً مستبعداً أن تحمل نفرتيتى معها ، بعد أن صارت زوجة للفرعون ، هذه الصورة الفريدة من عبادة الشمس التى اعتادت عليها . وأما مايدل على قوة تأثيرها على زوجها ، فلدينا العديد من الدلالات : فلقد كان وجهها الجميل جمالاً رائعاً مصوراً فى كل مكان إما بالرسم أو بالحفر أو بالنحت . وإذا افترضنا أن الاتجاه الواقعى الجديد فى الفن كان صادقاً فى تصويره لها كصدق تصويره لغيرها ، إلى جانب تصويره للحيوانات والموضوعات الطبيعية ، لأمكن اعتبارها أجمل ملكة فى التاريخ ، دون أن نستثنى كليوباتره Cleopatra أو بعض الأسيرات الشركسيات اللاتى اتخذهن السلاطين العثمانيون زوجات لهم . لقد كان زوجها يتومل إليها فى عبارات تبجيل وحب فى نشيد الشمس الشهير الذى ألفه هو . ومن ثم ، فهى الزوجة الوحيدة لمؤسس ديانة تأتى مقرونة على قدم المساواة فى الطريقة

---

(٣٠) "Varieties of Religious Experience"

المتبعة فى عبادة الديانة ، وأخيراً صارت شريكة لزوجها ليس فقط فى الحياة الخاصة بل فى الحياة العامة أيضاً ، وهى لم تكن فحسب السيدة الأولى فى البلاد ، بل صارت أيضاً الممثلة الأولى لجنسها بوجه عام ، الحانة لبناتها السبع على أن يتخذن دوراً مماثلاً فى المجتمع ، والتى استمرت على قدر ما نعرفه ، على وفاق تام مع حماتها ، وحتى لو سمحنا بالمبالغة البلاغية ، فإنه من الممكن أن يعزى شيء أقرب للكمال الأسرى إلى واحدة يمكن أن يصفها زوجها بأنها « خليلة سعادته ، يبتهج قلب الملك عند سماع صوتها » أما عن أن اخناتون قد فتن بها ثم تحول أخيراً إلى عقيدتها ، فهو أمر أكثر احتمالاً .

ولما كانت نفرتيتى قد جلبت لزوجها السعادة الشخصية برغم أنها لم تنجب له ابناً ولا وريثاً ، ولما كانت شخصيتها لا بد وقد تطلبت منه احتراماً خاصا للمرأة ، فلربما لم يزد من نفوره من عقيدة آمون أكثر من ممارستها للبغاء المقدس **Sacred Prostitution** : إذ فى معبد الكرنك العظيم ، الذى لم يكن يبعد كثيراً عن قصره الفرعونى كانت هناك أماكن خاصة منعزلة للكاهنات اللاتى عيِّن لإشباع رغبات الآله ، وبعيد عن الاحتمال أن يكون الملك قد اعترض على هذا الإجراء الذى كان شائعاً فى أنحاء العالم ، واتخذ صورة سامية ، وكان مظهراً من مظاهر غالبية الديانات بما فى ذلك المسيحية ، ولكن كان هناك سر يعرفه الجميع هو أن العذارى الطاهرات كن يعيَّن أيضاً للقيام بالواجبات العلمانية التى اقترن بها كهنة آمون . ولاشك أن الأسلوب الذى كان يعبد به الآله وبالأحرى طبيعة الآله نفسه (الذى كان على أية حال ،إله الشمس أيضاً) قد دفع الملك الشاب ، وقد سبق أن شجعته زوجته ، إلى أن يعلن أن عقيدة آمون : رجس ، ولعلنا نجد سبباً آخر فى طبيعة العقيدة الجديدة ، عقيدة آتون .

وفى القول بأن نفرتيتى قد حملت معها العقيدة التى حثت زوجها على اعتناقها معها هى نفسها ، فإننا لا نعنى أنه يدل على أن آتون إله أجنبى ، فلقد كان إلهاً مصريا ، وكان اسمه إلى جانب رمز قرص الشمس[٣١] يظهر فى أقدم التسجيلات المصرية ، بما فى ذلك نصوص الهرم ، وفضلاً عن هذا ، فلقد عُبد لأجيال على أنه إله الشمس . إذن ، كيف أن إحلال إله الشمس (آتون) محل إله الشمس (آمون) ، مع ترك إله الشمس الأعلى (رع) بلا منافس كما يبدو ، قد أحدث مثل هذه الثورة الكاملة فى الحياة الاجتماعية ؟ .

والجواب عن هذا السؤال يتمثل فى الصورة التى اتخذتها عبادة آتون ، وكان هذا ، بالنسبة

---

(٣١) علامة من العلامات التى تصور حورس **Horus**. ارجع إلى الجزء الخاص بـ (تمثيلية منف) .

لمصر ، أمراً جديداً تماماً ، فى المقام الأول كان معتنق عبادة آتون مضطراً إلى نبذ كافة الآلهة الأخرى ، فكان آتون لابد وأن يُعبد وحده .وثانياً ، لم تكن عبادة آتون تتألف فحسب من عبادة الشمس ، بل كانت عبادة خواص الشمس مانحة الحياة ، مثل ماتوضح الأناشيد العظيمة ذلك بوضوح تام :

ياخالق النطفة فى رحم المرأة .
وخالق سر التناسل فى الرجل .
ومانح الحياة للشمس فى جسد أمها . . .
وراعى حتى الجنين فى رحم أمه .
ومانح التنفس لتحيى كل فرد خُلق .

وكلمة آتون ، فى الواقع ، تعنى بكل دقة ؛ « مابالشمس من حرارة » . وقد قصد بقرص الشمس أن يصور ، وكانت تصاحبه أحياناً إشعاعات الشمس ، مناطق الحس الموزعة للحياة . أما عن أن عبدة الشمس قد اهتموا حتى ذلك الوقت بهذا المظهر من الإلوهية الشمسية ، فليس أمراً مؤكدا : لأن المناخ الحار قد لا يغرى الناس بأن تأثير الشمس مفيد بدرجة فريدة ، بل لايزال أقل من أن يكون مصدر الحياة ، ولكنه واضح أن عبدة آتون كان يشغل بالهم بصورة رئيسية جود الطاقة الشمسية ، وثالثا ، كان يعد هذا تخلصاً من العبادة الدينية المصرية ، عند الإشارة إلى الأصل الأسيوى ، وكان المعبد الحقيقى لآتون الهواء الطلق نفسه ، وفى تخلصهم من التماثيل والمزارات ، كان عبدة الديانة الجديدة يعبدون آتون لشخصه ، وكانوا يستظلون بكرمه وجوده ، فالإله يجب أن يُعبد روحاً وواقعاً .

وبرغم أن الملك الشاب يبدو أنه قد أظهر تفضيلاً ملحوظاً للأحلام ، كنقيض للحقائق ، والشعر كنقيض للدبلوماسية ، إلا أنه كان على دراية تامة بأن الديانة التى أسسها بالفعل لا يمكن أن تزدهر بدون تأييد مادى ، كما أنه لم يتجاهل ، برغم احتقاره البالغ بشكل واضح للمعارضة الكامنة لعبدة آمون وكهنته ، وكان معظمهم متعطلين ، برغم أن قلة منهم قد يبدو أنهم انخرطوا فى الديانة الجديدة ، ولهذا فقد اتخذ إجراءات عملية مشددة للحيلولة دون استئناف عبادة آمون ، وأمر بوجوب محو اسم آمون من كل نقش عام فى البلاد . وقد قدرت مثل هذه النقوش بالألوف . ولما كانت الديانة الجديدة ديانة توحيدية ، فلقد بدأت حملة

مماثلة ضد كل إشارة عامة إلى « الآلهة » باعتبار أن فى ذلك معارضة لـ « الإله »(٣٢)

وأما عن أن اسم « امنحوتب » وهو اسمه كان يحتوى مقطعاً كريهاً ، فلم يغب ذلك عن ملاحظته بطبيعة الحال ، ومن ثم فقد غيّره إلى آخر يجسد اسم الإله الجديد ، ولذلك فقد سمى الملك نفسه أخناتون الذى يعنى أن « آتون راضي » . ولما كان نفس الاعتراض قد طبق على اسم أبيه المتوفى والمبجل ، لذا فقد أُعيد تغيير نقوش المقبرة الملكية مع بقية النقوش ، وما زال الكثير من هذه النقوش الممحوة والتعديلات التى أدخلت ، ظاهرة للعيان .

ولاستكمال انفصاله عن عبادة آمون ، قرر أخناتون أخيراً أن يهجر الكرنك التى كانت مقترنة اقتراناً وثيقاً بالماضى ، وليقيم نفسه فى مدينة تكون وقفاً على الإله بصورة خاصة ، واختار لعاصمته الجديدة المكان المعروف الآن باسم « تل العمارنة » ، التى تبعد عن نهر النيل ببضع مئات من الأميال وتقع فى منتصف المسافة بين طيبة ومنف ، وأطلق عليها ، كما أطلق على كل شيء غيرها ، اسم آتون ، فأسماها أخيت – آتون **Akhet-aton**، ومعناها الحرفى هو « أفق آتون » ومن هذا الموقع اكتشف الأثريون معظم الوثائق المسجلة الخاصة بحكم أخناتون . ولما لم يكن راضياً عن وجود مدينة واحدة لآتون ، لذا قرر أخناتون مع ذلك ، بناء مدينتين أخريين ، إحداهما فى النوبة والثانية فى آسيا ، لأنه كان مصمماً على أن يوضح أن آتون لم يكن فحسب إله مصر ، بل كان أيضاً إله العالم كله ، أو على الأقل ، إله الإمبراطورية المصرية ، وقد يكون هناك بالمثل معنى خاص فى إقامة مثل هذه المدينة فى ذلك الجزء من الإمبراطورية الذى جاءت منه الملكة نفسها .

وفى التحمس للعقيدة الجديدة ، يبدو أن الحياة فى أخيت آتون كانت حياة رخاء وسرور . ولما كان المجتمع المصرى معتاداً دائماً على أن ينظر إلى فرعونه على أنه مصدر البركات ، فلابد أن ظهور الأسرة المالكة بمثل هذا الاتحاد وهذا الإخلاص ، لابد وأنه كان ينظر إليه على أنه دلالة خاصة على منة الإله ، وعلامة من علامات تقدير آتون للاحترام الجديد الذى اكتسبه بين الناس . وفى مجال الفن ، كما سبق أن ذكرنا ، فإن حرية عقيدة آتون قد أنتجت تأثيراً متحرراً جديراً بالاعتبار ، فلقد رُسم الرجال والنساء رسماً طبيعيا لم يرسم مثله من قبل.وقد سمح الملك بأن تسجل مناظر من حياته المنزلية تسجيلاً يكاد يبلغ فى دقته التصوير الفوتوغرافى ، ومن هذه المناظر منظر يمثله وهو يحتضن ملكته . والصورة الرقيقة والتى تكاد تكون مخنثة والتى بقيت له ،

(٣٢) من الطريف أن نذكر أنه ، فيما عدا ذلك ، لم يعلن رسمياً عن أى إله زائف إلا آمون .

توحى بأن أخناتون ، استخفافاً منه بالتملق التقليدى لفنانى القصر ، أراد أن يصوَّر تماماً كما كان فى الواقع – لا كمحارب أو حتى كرجل له نفوذه – بل بالأحرى كشاعر أو متنبئ (والمظهر الوحيد المحيِّر فى هذه التصويرة الإنسانية ، التى ربما توحى بتملق فيه دهاء ، هو حقيقة أن معظم الأشخاص يظهرون وأرجلهم مشوهة ، وهو أمر لا يمكن أن يكون حال كثيرين جدًّا ، بل قد يكون حال واحد كانت مشاعره فى هذا المجال لها احترامها) ولكن لعل أجمل مابقى لنا من هذه الفترة البالغة الاهتمام بالأمور الأخروية هو نشيد الشمس نفسه بفقراته التى تذكرنا بالمزمور ١٠٤ (ما أعظم أعمالك يارب كلها ! بحكمة صنعت) :

ما أعظم أعمالك يارب كلها ! .
هى خفية عن ناظرينا .
يأيها الإله الأوحد ، يا من لك من القوة ماليس لأحد سواك .

يامن خلقتَ العالمَ وفقاً لإحساس قلبك ،
(وبإشاراتها المباشرة إلى الزوجين الملكيين)
لقد أسستَ العالم .
ورفعت مكانتها لأن ابنك . . .
اخناتون عمره مديد ،
ولأن زوجته الملكية الزعيمة ، محبوبة .
سيدة الدارين ،
نيفر – نفرو – آتون ، نفرتيتى ،
تحيا وتزدهر دوماً وإلى الأبد .

وهذا النشيد ، وهو الفريد فى الأدب ، ومن المحتمل أن يكون أكثر جمالاً فى الأصل عما يمكن أن نتصوره بسهولة ، يمكن أن يمدنا بمفتاح لقوة ثورة أخناتون وضعفها . لقد أُلِّف فى لغة عادية بسيطة مذهلة مدركة . أما عن أنه يمكن أن يكون شعبيًّا على الدوام ، كما ينبغى للأناشيد أن تكون شعبية ، فهو أمر مشكوك فيه تماماً . وإذا كانت العقيدة التى يعبر عنها قصد بها أن تكون عقيدة عالمية ، فلقد كان تعبيرها الشعرى تعبيراً عن الوحدة ، يكاد يكون تعبيراً عن العزلة ، كتعبير مؤلف مزامير عبرانية معينة :

أنت فى قلبى
وما من أحد آخر يعرفك
سوى إبنك أخناتون ،
الذى جعلته حكيماً
وفق إرادتك ووفق قدرتك .

هكذا كان يفكر . وبرغم عظيم إخلاصه وعمق خبرته الروحية ، فإن هذا الاتجاه إلى اللجوء إلى الله فى هدوء غرفة نومه ، هذه المعرفة الذاتية البعيدة ، ربما كانت السبب فى قصور العقيدة الجديدة عن فرض سلطانها على شعبه ، لأنه ، أيًا كان احترام الشعب لأخناتون وأسرته ، لم يتخل الفرد العادى عن معتقداته القديمة كما أنه لم يتصور فى غالبية الأحوال بأنه مطالب بأن يفعل ذلك . وتغيير اسم مكان اسم يعنى أمراً بسيطاً جداً فى نظره ، كبساطة أمر الديانة الجديدة ذاتها . ومن الغريب جداً أن الأدب الذى ظهر خلال حكم أخناتون لم يشر أية إشارة تذكر إلى أوزيريس ، فهل كان مرد ذلك إلى أن الحظر على عبادة آمون كان من المفروض أن يمتد تلقائياً إلى أوزيريس أيضاً ؟ أم كان مرجعه إلى أنه لا يمكن لأى مجدد ، حتى ولا أخناتون ، أن تصل به حماقته إلى حد أن يحظر عبادة الشعب لأوزيريس ، التى كانت أبعد من أن تكون ديانة عن أن تكون تقليداً اجتماعياً راسخاً ؟ على أية حال ، لما كانت ديانة آتون ، باعتبارها (وهذا ما ينبغى قوله) متحررة تمام التحرر من خرافة فرض توجيه اهتمام الجماهير إليها ، لم تحرز تقدماً فى تنحية رئيس قضاة العالم السفلى . ولابد للشعب من أن يكون له عالمه السفلى ، وقد برهن المجال السامى لآتون على أنه ليس بديلا له . وأخيراً ، لقد كانت عقيدة آتون عقيدة أساسية للعبادة ، مجرد عبادة ، فى حين أن ديانة ما لا يمكن أن تتأصل ولا يمكن أن تمارس مالم تكن عملية . وتماماً مثلما أن الأخلاق يجب أن تدعمها الديانة ، فكذلك الديانة يجب أن تصبح مجسدة فى الأخلاق .

على أن التهديد المباشر الموجه لاخناتون وللإنجيل الاجتماعى الجديد لم يأت من كهنة آمون المتضجرين وأتباعهم ، كما كان أبعد من أن يجىء من عامة الشعب ممن لم تخطر لهم الثورة الاجتماعية على بال ، بل جاء التهديد من خارج البلاد . لقد كان أخناتون يأمل أن يحكم مصر عن طريق فكرة ، عن طريق حلم : ولكن أية إمبراطورية مهما تكن إدارتها تحب الخير ، لابد

أن تدافع عنها وتحميها بالقوة . ولقد نادى بعض المؤرخين بأن أخناتون برغم أنه لم يكن محارباً مثل تحوتمس الثالث Thutmos III ، قد سعى إلى التوسع فى أطماع مصر الإمبريالية باتباع وسيلة أكثر دهاء : بغزو عقول رعاياه ومن ثم كانت عقيدة آتون صورة من صور الدعاية وكان قرص الشمس المجنح ، بكل تأكيد ، رمزاً أكثر سهولة فى تصديره عن أى شعار مصرى آخر ، وكان من الممكن تقبل أناشيد الشمس فى أى مكان ، برغم أنها كانت فيها جدة لنشيد وطنى أو امبريالى لتكون فى الوقت نفسه شعراً جذاباً . وكانت ولاية سوريا أول ولاية رفعت إشارة الخطر . لقد جاء العدو أصلا من آسيا الصغرى – شعب شرس ، جسور ، عنيد ، برغم أنه كما يتكشف لنا بسرعة ، لم يكن بلا ثقافة وكان هؤلاء الناس ، الحيثيون The Hittites قد كسبوا كثيراً من الحلفاء على حدود الإمبراطورية المصرية . وكانت أول إغارة على الحدود الإمبريالية هى الإغارة التى قام بها ملك قادش ، الذى احتل شمال سوريا ، وهذا الهجوم أعقبه بسرعة ، تقدم ملك الأموريين the Amorites إلى الموانى الغنية والحيوية استراتيجيًّا ، الواقعة على الشاطىء الفينيقى بما فى ذلك بيلوس . وقد أُرسلت استغاثات حماسية طالبة النجدة من أخناتون من ولاته المذهولين بل المخلصين سياساً . ولما لم يكن الفرعون على استعداد لأن يبعث بقوة مكشوفة فقد بعث بمسئول ثقة إلى فينيقا على رأس لجنة تقصى الحقائق ، ولما كان هذا المبعوث يعمل بلاشك بروح التعاليم التى أملاها عليه أخناتون ، فلقد أخبر المبعوث ملك الأموريين أنه يمكنه البقاء حيثما كان . لقد كان من المؤمل أنه يمكن أن يعتبر نفسه فيما بعد إقطاعياً من إقطاعيِّى مصر . والغازى ، بقبوله هذا الترتيب فى الوقت الذى تم فيه الاتفاق ، بقى حيث هو .

ولكن الهجمات توالت من مناطق أخرى ، إذ قام البدو بثورة ، واستولوا على مدينة مجدّو (أرماجِدُّون) بالقرب من بيت المقدس ، وانقض الأشوريون The Assyrians انقضاض الذئب على الحظيرة . وأخيراً ، إذ بملك الآموريين الذى كان يأمل أن يحول تبعيته إلى استقلال بأن يكف عن دفع جزية اسمية لمصر ، وجد نفسه وجهاً لوجه مع أحلافه القدامى الحيثيين ، فاضطر إلى التنازل عن حريته التى أوشك أن يفوز بها . وبعد أن خُلع حكامه وأُهين رسله وخليت خزائنه من الجزية ، وجد أخناتون نفسه فجأة لا حول له ولا قوة بالخارج ولم يعد له أصدقاء بالداخل ، لأن حزب المعارضة قد صار بطبيعة الحال أكثر جرأة فى معارضاته نظراً لتدهور الموقف بالخارج . والجانب الأكبر من هذا الانحلال Débâcle لابد وأن يعزى كما يبدو

إلى محض خرق سياسى ودبلوماسى من جانب الفرعون أخناتون . ومن مئات اللوحات المكتوبة بالكتابة المسمارية Cuneiform التى اكتشفها «فلندرز بترى» بين سنتى ١٨٥٥ – ١٨٩٣ فى تل العمارنة (رسائل تل العمارنة[٣٣]) نعرف أن ممثلى أخناتون فى الخارج لم يحيطوه إحاطة تامة بكل مجريات الحوادث فحسب ، بل رجوه فى غيرة وحماسة أن يبعث لهم بمعونة عسكرية[٣٤] وقد تكون هناك خيانة أحياناً ولكن مثل هذه الاستغاثات اليائسة توحى بأن كثيرين من حكام المحافظات ، برغم أنهم لم يكونوا دائما مصريى المواطن ، إلا أنهم كانوا على استعداد لأن يبقوا فى أماكنهم . وفى النهاية ، فقد أخناتون كل إمبراطوريته تقريباً بدون قتال .

ويمكن لإنسان أن يعيش بعد الهزيمة ولكن إلّها وطنياً لايمكنه ذلك .ونحن لانعلم إلا القليل عن نهاية حياة وحكم أخناتون ، لأن الدليل غامض .وبرغم أن أخناتون كان لايزال دون الثلاثين من عمره ، إلا أنه يبدو أنه قد ضعف تحت ضغط وإذلال الكوارث الوطنية ، وربما تحمَّل شخص أكبر سناً مثل هذه التجارب بصورة فلسفية أكثر ، لو كانت له فلسفة أكثر واقعية يعتمد عليها . وسواء أقلع الملك ، كما ادعى ، عن عبادة آتون أو رجع إلى عبادة آمون ، ولو كان هذا صحيحاً فهل فعل ذلك طواعية ، ربما كشرط لتمكينه من استرداد العرش ، فهذا أمر لانستطيع البت فيه أما عن نفرتيتى فإن ما نعرفه هو أنها بقيت فى أخيت – آتون ولكنها رفضت الإقلاع عن عبادة آتون ، وهذا دليل آخر على أنها قد شبت على هذه الروح . ولو كانت أنجبت ولدا لكان قد اعتلى العرش ، ولكن،بدلا من ذلك ، عين أخناتون زوج ابنته الكبرى ، «سمنخرع Semenkhare » ليحكم بالاشتراك معه ، ربما فى طيبة وربما كمتعبدَيْن نادميْن اعتباريا لآمون ، وإذا كان قد حدث هذا فلابد وأن توفى الاثنان خلال فترة قصيرة فاصلة بينهما ، لأن الفرعون الثانى الذى أعلن تنصيبه كان الزوج الشاب لابنته الثانية .

وهذا الصبى الذى بقِىَ مع نفرتيتى فى أخيت – آتون ، كان يدعى توت عنخ آتون . وبعد ثلاث سنوات من الحكم ، هجر عاصمة ديانة آتون ، وعاد إلى طيبة ، وأعلن أن ديانة آتون غير شرعية وأعاد كهنة آمون إلى مناصبهم السابقة وخلص نفسه من كل آثار العهد القديم وغيّر اسمه إلى توت عنخ آمون .

---

(٣٣) "Tel el-Amarna Letters"

(٣٤) كانت ولا تزال الكتابة المسمارية لغة الدبلوماسية ، وكانت أثراً من آثار النفوذ التقليدى لبابل .

وقد لقيت عبادة آتون وكهنتها على يد « توت عنخ آمون » نفس المعاملة التى لقيها كهنة آمون وآلهم على يد أخناتون . وغيِّرت النقوش مرة أخرى وحظر ترديد اسم الفرعون السابق حتى فى الحديث ، وإذا لزمت الإشارة إليه ، كان يشار إليه بـ « المجرم العظيم the great criminal » أو « المنشق العظيم the great schismatic » ، ولكن بأى حظ أو بأية حيلة أفلحت نفرتيتى فى البقاء فى تل العمارنة ، فهذا مالا علم لنا به . لقد اتهمها أعداؤها بأنها طلبت معونة الحيثيين ضد صهرها ، وإذا كان هذا هو الأمر ، فليس العجب فى أنها فعلت ذلك بل فى أن أنشطتها ، وكان معروفا أنها كانت موجهة ضد العهد الجديد ، لم تكن تخضع لرقابة أكثر يقظة إذ من المحتمل أنه كان يظن بأنها فى عزلتها عاجزة عن أن تسبب ضرراً كبيراً .

وفى أثناء ذلك كانت الكوارث السياسية التى حلت بالبلاد فى عهد أخناتون ، فى طريقها إلى الإصلاح ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال على يد خليفته ، الذى يبدو أنه كانت تعوزه المبادرة ، بل كان ذلك على يد واحد من قواد الأخير ، وهو حورمحب Horemheb . وفى سلسلة من المعارك الشهيرة ، لم يسترجع الأخير ثروات مصر فحسب ، بل نجح فى أن كوَّن لنفسه ثروة ، وتزوج إحدى بنات أخناتون ، وأخيراً اعتلى حورمحب العرش على أنه آخر حاكم للأسرة التى فعل الكثير للحفاظ عليها ، ولكنه فى غطرسة غير عادية ، وفى بعض نكران للجميل صمم على أن يؤرخ بداية حكمه من وفاة امنحوتب الثالث ، وبذلك محا من التسجيل فترات حكم أخناتون وتوت عنخ آمون وآى Ai (الذى تزوج من أرملة توت عنخ آمون) الذين كانوا يُنظر إليهم على أنهم جرّوا الخزى والعار على فرعهم القديم ، وبوصفه مستعيداً لثروات بلاده ، ادعى — وكان رغم ذلك محقاً فى ادعائه وإن كان أساسه واهيا — بأنه المؤسس الفعلى للأسرة التاسعة عشرة ، لأنه بعد أن تقدم به العمر فى أعمال حربية لاتنتهى ، قرر أن يدعم انجازاته بأن رتب أن يعتلى العرش من بعده زميله فى النضال ، رمسيس الأول Rameses I (١٣٢٠ق . م) الذى حقق خلفاؤه المباشرون وعلى رأسهم جميعا رمسيس الثانى [٣٥] نبوءته بما قاموا به من إنجازات ضخمة فى البناء وفى الفتوحات الخارجية . وبرغم

---

(٣٥) يعتبره البعض الفرعون الذى صوره سفر الخروج Exodus ، وبصرف النظر عن ذلك ، فلقد كان رجلاً ذا شخصية ، وقد اشتهر عنه أنه كانت له مئات من الزوجات ، وكوّن أسرة كبيرة جداً حتى صارت فى القرون القليلة التى أعقبت ذلك أسرة قائمة بذاتها .

ذلك ، فلقد كانت هذه الانتصارات مقدمة لكارثة ، إذ أن كهنة آمون ، وقد أصبحوا الآن أكثر ثباتاً فى مركز السلطة ، أفلحوا خلال حكم آخر الرعامسة فى أن ينصّبوا واحداً منهم على العرش نفسه ، وبذا لم يعد هناك أى كبح للفساد . وكان إقرار القرارات السياسية كثيرا مايتم عن طريق التطير كما يتم عن طريق الحوار المنطقى ، وبدلا من أن يكون مجال تداول الخرافات مقصوراً على العالم السفلى الروحى استشرى أمرها فى البلاد ، وغزت حكم وتعاويذ «كتاب الموتى» ميدان الحياة ، حتى بلغت الحالة العقلية درجة لم يكن محال فيها أنه إذا رغب عراف فى استخلاص بعض الحظوة عند الآلهة ، قد يهدد لابأن يشى بأسمائهم إلى الشياطين فحسب ، بل وبأن ينتزع شعورهم كما ينتزع «أزهار اللوتس من بركة ماء» . ولم تكن هذه العقلية عقلية ملحدة ولاحمقاء ، لقد كانت فحسب عقلية متدهورة – حالة من التسليم بالواقع أيقن فيها الورعون بأن الآله يمكن السخرية منه فى أى وقت .

البصيرة الجديدة : خاتمة .

برغم أن حكم أخناتون كان فترة قصيرة نسبياً ، وطبقاً لما ذكره حورمحب ، كان فترة جرت الخزى والعار على التاريخ القومى – فقد يكون من الخطأ ادعاء أن عبادة آمون لم تؤثر أى تأثير على حياة وفكر مصر ، بل قد لايقل عن ذلك خطأ القول بأن تحريم عبادتها رسمياً قد محا ذكراها تماماً من أذهان الناس . وأيّاً كانت بساطتها السياسية ، فلقد أثر أخناتون وزوجته تأثيراً لامراء فيه على الشعب باعتبارهما قدوة له للتعبد الشخصى لإآله : أو على الأقل لمثل أعلى . وهناك دليل بالغ القوة لايمكن إغفاله ، هو أنه بعد هذه اللحظة الذهبية لبهجة الحياة – لأن الواقعية من النوع الذى يتضح فى الفن كانت انعكاساً أصيلا لمثل هذه البهجة كما أن واقعية نوع آخر هى انعكاس لاشمئزاز ازداد الإدراك بأن قوة الشخصية وجمالها لها قيمة فى حد ذاتها ربما لأول مرة فى التاريخ ، وهذا هو السبب فى أن أخناتون برغم حقيقة أننا نعلم عنه أقل مما كنا نود أن نعرفه ، يبدو كفرد فى عالم من أنماط وزعماء صوريين ، أو مجرد ظلال . وكان كبار الحكماء الذين سبقوه – وزراء وحكام وكهنة ورجال عقلاء فى جيلهم – يحسون بالرضا لتفسير حكمة القدماء ، موصين غيرهم ، وهم فى العادة أبناؤهم ، باتباعها .

وفى تناقض مع هذه الشخصيات المبجلة ، نجد أن أخناتون ، وقد تقبلت نفسه الحكمة ، عاشها ، وعلى ذلك الأساس وحده ، كانت فترة عبادة آتون فترة خطيرة فى التاريخ . وعلى

شاكلة غيرها من الفترات القليلة التى يمكن أن تقارن بها ، مثل فترة حكم آشوكا[٣٦] Ashoka ، فإن قيمتها الرئيسية هى فى أنها قد أوضحت أن بذل الجهود فى سبيل الوصول إلى الكمال الإنسانى يمكن أن يتحقق فى أى عهد عن طريق قوة الطموح الإنسانى وحده . وإذا كانت مثل هذه الفترات تبدو أنها تنتمى إلى الشعر أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، وإلى الخيال أكثر منها إلى العمل فلأن التاريخ هو فحسب المادة التى تملأ الفراغات المملة بين مثل هذه الفترات الزاهية : مما يفسر السبب فى أن كل التواريخ ، بما فى ذلك تاريخ العالم الغربى ، تبدأ بفترة من الشعر تعد أيضاً نتيجة لذلك ، مقدمة للون جديد من الحياة .

مثل هذه الحياة الجديدة لاتدرك إلا فى مستويات معينة ودائماً فى فترات نادرة . ومن الطريف أن نلاحظ ، مع ذلك ، أنه فى ترابط مع التقدير للشخصية الإنسانية الذى بدأ ظهوره كان هناك موقف جديد تجاه النقيصة الإنسانية أو الخطيئة . وكان أكثر « كتاب الموتى » مؤلفاً من وصفات لتجنب الحساب فى الآخرة ، لإخفاء نقائص المرء ، ولخداع الآلهة . وبرغم عبث العرافة والسحر والشعوذة الذى سبق أن أشرنا إليه على أنه نذير بتدهور الثقافة المصرية ، فإننا نلاحظ هنا وهناك إشارة جديدة ، وهى ليست إشارة احتجاج للبراءة ، بل هى إقرار بالذنب ، حالة ندم معبر عنها تعبيراً صادقاً ، تواضع وإذلال لا وجود له على الإطلاق فى النقوش الجنائزية التقليدية للحكام والمحافظين ، قصد بها التبرير الذاتى حتى فى الموت .

هذا الوضع الذى هو مغزى إنجيل المسيحية لم يعبر عنه تعبيراً أكثر وضوحاً مثلما أوضحته أعمال الحكيم امينموب Amenemope الـذى عاش حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م . والذى بقيت لنا أعماله فى أوراق البردى المحفوظة الآن فى المتحف البريطانى . ومن كافة أعمال الحكماء المصريين ، تعد أعمال امينموب أجدرها بالاعتبار وأقربها إلينا روحيًّا . وهى فى الواقع تتيح لنا أنسب انتقال إلى حكمة العبرانيين الذى يحمل فكرهم المدون ، برغم أن تاريخه يرجع إلى فترة لاحقة ، آثاراً عديدة من التأثير المصرى . وفى أماكن ، تظهر أجزاء من الحكمة المصرية فى الكتابات المقدسة العبرانية مترجمة كلمة كلمة . وبعض كتابات امينموب ، مثلا نجدها مرة ثانية ، كما أوضح ذلك بريستيد عن اقتناع تام ، فى مكان واحد على الأقل فى « العهد القديم The Old Testament . أعنى « أمثال » ، الأصحاح ٢٤ . ونحن نعلم أن حكمة امينموب ترجمت إلى العبرانية ، ولعلها تدوولت فى أرجاء الشرق الأوسط مع غيرها من

(٣٦) انظر الفصل الخامس فى هذا الكتاب .

الكتابات المصرية . ونحن نعرف بالمثل أن قادة العبرانيين وأنبياءهم كانوا على دراية بمثل هذه الكتابات ، ومن بينهم موسى عليه السلام ، الذى كان من الواضح أن فرصه للإلمام بها فرص عظيمة ، ولاشك فى أن هذا الأمر ينطبق أيضاً على كل من عاموس Amos وهوشع Hosea .

وعندما أوصى بتاح حوتب وميريكرع أبناءهما بتبجيل « ماعت » نجد أنفسنا فى حضور حكمة حضارة تعتبر حضارة فريدة وأبدية معاً فالحكمة ، إذا استخدمنا تعريف الفيلسوف الغربى ، كانت « عادة راسخة » ، نظراً لأن قوانين الحياة الاجتماعية فى مصر كان من المفروض أن « الآله توت Thoth » قد وضعها لتدوم دائماً أبداً[٣٧] ، وعندما يلاحظ أمينموب أن « الله فى كمال ، والإنسان فى قصور » ، نلاحظ مع ذلك أننا فى حضور حكمة حضارة نفس الهند لما هو راسخ ، حضارة فى طريق تكوين فى عبودية ، حضارة زاحفة. باختصار ، نحن فى عالم مؤلف المزامير الذى يعد قصوره هو فى انشغاله اليومى ، والذى يعتقد أن التبصر فى عظمة الإله لايمكن بلوغه عن طريق الحكم المتنورة بل عن طريق تعذيب النفس[٣٨] .

نحن الآن نودع حضارة مصر . ولقد جرت العادة فى معظم الكتب التى تتناول الفلسفة أن تبدأ بالفلاسفة السابقين لسقراط ثم تنتقل إلى كبار المفكرين الإغريق ، وبعد ذلك ، إذا كان المؤلف مهتماً بعلم اللاهوت فإنه يتجه إلى إمعان التفكير فى أفكار الآباء المسيحيين الأولين ، بادئا بالقديس أوجستين St. Augustine إلى أن يصل إلى كبار مفكرى العصور الوسطى . ولقد اتبع المؤلف فى الجزء الأول من هذه السلسلة مثل هذا المنهاج التقليدى ، لأن اهتمامه كان تتبع تطور تقليد فكرى قد تحرك غرباً ، بينما يتيح لنا هذا الجزء فرصة دراسة تقليد فلسفى يكاد يبدأ من نقطة مماثلة ولكنه يتحرك فى اتجاه آخر . وفى متابعة هذا التحرك المضاد ، سنقوم مع ذلك بتغطية منطقة معينة مشتركة لكلا التقليدين ، بينما كنا فى هذه الفصول القليلة الأولى نقوم

---

(٣٧) كان « توت » إله الحكمة فكان حكمه الذى دام ٣٠٠٠ سنة ، من المفروض أن يبدأ حوالى سنة ١٨٠٠٠ ق . م .

(٣٨) ربما كان جديراً بالإشارة بالنسبة للمهتمين بالوجودية ، وهو اسم جماعى لعديد من النظريات المختلفة والتى كثيراً ما تتصارع ، أن المزامير العبرانية تكشف عن وجهة نظر وجودية واضحة تمام الوضوح ، ونجد فيها نفس الوعى بضعف الإنسان الكامل أمام القوى التى هى خارج نطاق سلطانه ، نفس الإدراك بأن حريته تأتى من خلال العمل والخدمة ، نفس الانشغال بالخزى والموت . وموضوع المزامير أو على الأقل الغالبية العظمى منها ، هو القلق . والواقع أن المزامير ، على النقيض من ذلك ، تتقارب فى روحها ، أقل من تقارب الوجودية الدينية لجبرأييل مارسيل Gabriel Marcel عنها للوجودية العدمية أو المتحدة لجان بول سارتر Jean-Paul Sartre وسنناقش هذا الموضوع مرة أخرى فى خاتمة الكتاب .

بدراسة حضارة ليست فحسب أقدم وأعرق من أية حضارة معروفة ، بل تعد أكثر أهمية كمؤثر ثقافى عما كان مسلماً به . وطوال الرحلة التى تمت بالفعل ، كنا مضطرين دائماً إلى تذكير القارئ أن ما يواجهه هو ، إن لم يكن بداية الحكمة ، فعلى الأقل إذن استهلالاتها ، وأن هذه النماذج المختصرة للفكر عن الإله والإنسان والخلود والحياة الصالحة هى الأولى من نوعها التى سجلت ، وأن أقدم مؤلف ميتافيزيقى معروف لنا ، « تمثيلية منف » ، قد يبدو أنه افترض مسبقاً وجود تقليد لفكر قديم بالفعل يرجع إلى سنة ٢٥٠٠ ق . م ، ومع ذلك لايمكننا أن نحاول القول ، فى لحظة لايمكن أن يحدد فيها أى تاريخ دقيق (وإن كان على الأقل مليون سنة من بدء ظهور الإنسان على الأرض) لماذا كان لابد للحضارة أن تنشأ بالمرة .

وفى عصر استبعدت فيه فكرة التقدم على أنها وهم ، فإنه من الطريف أن نلاحظ أنه لم يكن هناك مايشير إلى تقدم فى الوعى الأخلاقى والروحى فحسب ، بل كان هذا أمراً مقرراً(٣٩) ، وفقاً للدليل المادى الموجود . وهذا لايعنى ، بطبيعة الحال ، أنه بمضى الوقت صار سلوك الناس أحسن وأحسن . ومما يؤسف له أن السلوك متخلف عن النواميس بطريقة لابد وأن يجد الأخلاقيون العلمانيون أنها محيرة تماماً ، مثل هذا التقدم هو ، كما يمكن أن نفترض ، النتيجة لبدء الإنسان فى أن يفكر بطريقة مرتبة ، فى مسائل لم يكن ، لأسباب مادية ، قد هيأ نفسه لها من قبل : إذ كان شديد الانشغال بالإبقاء على نفسه حياً . ولو كان التبصر الأخلاقى خاصية عقلية يجب بلوغها ، لكان من المحتمل أن تكون أول محاولات الإنسان لاكتسابها قد تمت على طول المراحل المنطقية لاكتسابها ، ومن ثم فإن خطوات تقدمه من مجرد طاعة لقانون مقدس ، إلى إحساس بالواجب إزاء المجتمع ، وأخيراً إلى اكتشافه لضميره الذاتى ، ومايتبعه من تقبل للمسئولية الأخلاقية – تقدم يبدو ، فى عصر بناة الأهرام ، أنه كاد أن يتخذ اتجاها خاطئاً ، إذ حاول الملوك أن يبنوا بروجا ضخمة يتحصنون فيها من الموت – قد صارت علامات على الطريق مرئية على هذا الإطار التاريخى البعيد . ومثل هذا التطور ، مع ذلك ، جدير بالاعتبار لسبب آخر : لقد تحقق فى الواقع قبل أن تتناول موضوعه

---

(٣٩) التقدم واقعى لو لم يتوقف استمراره ، والمنحنى الصاعد يقرر نفسه إلى أية سلسلة من موجات الهبوط والصعود يتجه ، ولكن فى تلك المجالات التى يستطيع فيها علم الآثار فضلاً عن التاريخ المدون ، أن يقوما بمسح لها ، لاتهبط موجة هبوط قط إلى المستوى المنحنى لسابقتها ، ولاتعلو أية موجة صعود الموجة السابقة لها (انظر جوردون تشايلد Gordon Childe فى كتابه : ماذا حدث فى التاريخ . (What happened in History

أية حضارة أخرى من جانبها ، بما فى ذلك حضارة العبرانيين ، وإذا لم تكن أية حضارة أخرى من عصر لاحق قد أظهرت تطوراً يرقى إلى مستوى المقارنة ، فإن مرد هذا فحسب إلى أنه لم تشرع واحدة منها ، وهذه هى الحقيقة ، فى ذلك منذ البداية .

ويجب أن نختتم هذا القسم بتحذير : إذ تحت تأثير غنى المادة التى أتاحتها الحفريات فى مصر ، وعراقتها فى القدم ، وصل بعض كبار المفكرين وفى مقدمتهم جميعا فلندرز بترى وايليوت سميث ، وبريستيد نفسه إلى حد ما — وصلوا إلى ما أطلق عليه اسم النظرية « الانتشارية » للثقافة (٤٠) ، والتى بناء عليها أن كل حضارة فى العالم نشأت مما كان هناك من تطورات فى وادى النيل . أما عن أن الحضارة الغربية تدين بقدر كبير للتأثير المصرى فهو أمر لاجدال فيه ، وهناك بالمثل قدر طيب من الدلالات يوحى بأن التأثير المصرى امتد إلى أجزاء من العالم لم يكن من المتوقع على الأقل أن تصل إليها (٤١) . ولكن فى الوقت الذى نعترف فيه بأن الحضارة المصرية لابد وأن كان لها تأثير عميق فى كل منطقة دخلتها ، فإننا يصعب علينا أن نتقبل النظرية الانتشارية مالم يدعمها برهان أكثر إثباتاً ودون الحدس البحت .

ويمكن أن نشير أيضا إلى أن المصريين ، برغم أنهم ظلوا شعباً إمبريالياً لعدة قرون ، لم يقوموا بمحاولة جادة بسيطة لتصدير ثقافتهم ، بل هم على العكس من ذلك كانوا يصونون تلك الثقافة بمنتهى العناية كارهين أن يتطفل على أرضهم أى شخص يحتمل أن يهدد وجودها . وفى وقت مبكر يرجع إلى الألف الثانية أقاموا ما أسموه سور الحاكم ، «لمنع الرعاة الأجانب من أن ينزلوا مرة أخرى بمصر ، حتى يتحتم عليهم أن يتوسلوا بطريقتهم الخاصة لسقاية إبلهم ».ولم تكن الآلهة المصرية ، بالمثل مجرد آلهة وطنية متطرفة فحسب ، بل قاطنة لإقليم كان يحمل ، فيما عدا المساوئ الواضحة المصاحبة للحياة الدنيوية ، أقرب الشبه لأرض نهر النيل . لقد كان هناك نيل مقدس فى السماء ، وعلى هذا النهر كان الفرعون المعبود يسبح فى قاربه ، كما كان هناك أيضا نيل فى الأقاليم السفلية أبحر عليه أوزيريس . وكل أوصاف الحياة الخالدة

---

(٤٠) The diffusionist theory of culture

(٤١) دون أن نتجاوز كورنوول Cornwall نادى ، ت .ف .ج .ديكستر T.F.G. Dexter وهو على صواب فيما نادى به أن الشكل القديم لصليب الكورنيش لم يكن وثنى الأصل بل هو تطوير للشكل المصرى « عنخ Ankh » رمز الخصوبة كما أن بعض العادات التى لاتزال باقية تكشف عن تأثير الشعائر الدينية المصرية . وهذه النظريات تطورت لا كنتيجة أى محاباة parti pris بل نتيجة التوسع فى الأبحاث الأثرية فى كورنوول . انظر كتابه المعنون صلبان الكورنيش المسيحية والوثنية . Cornish Crosses, Christians and Pagans, Longmans, 1938)

تصور مثل هذا الوجود على أنه مجرد صورة سامية للحياة العادية فى مصر. ويكاد يكون صحيحاً القول بأن السماء كانت صورة مكررة للحياة على الأرض مثلما يقال على الأقل بأن الحياة على الأرض قد شكلت عن قصد لتكون على نمط الحياة فى السماء. وعندما قام أخناتون بتصدير الثقافة المصرية بالطريقة الوحيدة الفعالة التى يمكن أن تصدر بها ثقافة ما ، أعنى بنشر ديانتها ، كانت العقيدة المعنية ترجمة مجردة رفيعة للديانة المصرية المكتظة بالآلهة والتى يكتنفها الغموض ، وقد تجردت من جنسيتها عمداً لهذا الغرض . ومن ثم ، فقد صار النيل نفسه للمرة الأولى والوحيدة من الناحية النظرية ما صار عليه فيما بعد فى الواقع ، أعنى طريقا عاماً دولياً ، وفى نشيد الشمس لأخناتون يتضح التغيير فى الروح بكل وضوح :

هناك نيل فى السماء للغرباء
وللماشية كل قطر تسير على قوائمها

ولكننا نعرف أن رسالة أخناتون قد فشلت فى الخارج قدر فشلها بالداخل ، وما كان العالم يدين به لعبقرية مصر هو ما استعاره العالم من مصر ، ولكن المستعير يجب أن يكون له لون آخر من العبقرية ليحسن استخدام الأشياء التى احتفظ بها ، ومن ثم تكون الحضارة مُلكية مشتركة .